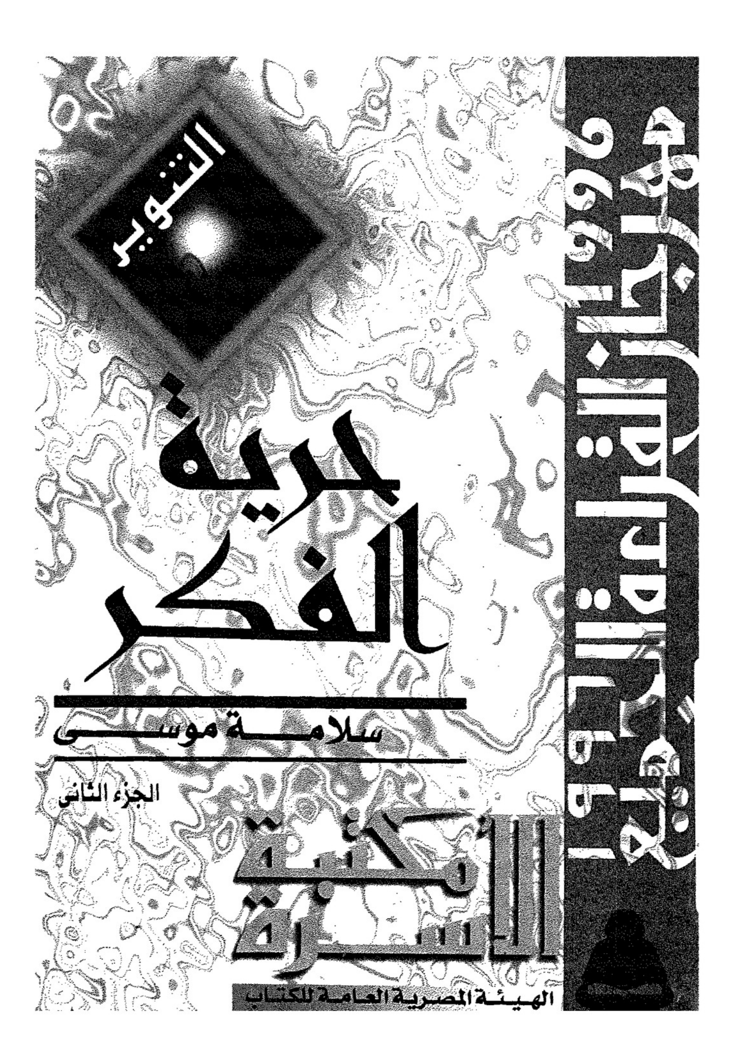


التنوير
حرية الفكر
سلامة موسى
الجزء الثانى
مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
مهرجان القراءة للجميع ٩٦

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة

حرية الفكر

أبطالها فى التاريخ

(٢)

سلامة موسى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

الجزء الثانى

حركة الفكر فى العصور الحديثة

ارهاصات النهضة الأدبية

الارهاص لفظة شرعية معناها تلك الخــوارق أو الكرامات التى يأتيها النبى قبل أن تبلغ نبوته سن الرشد أى قبل أن يستتم حقوق الدعاية الى دينه الجديد • ولكل حركة اجتماعية فى العالم ارهاصات تتقدمها وتدل عليها وتكاد تنطق بها • فللثورة الفرنسية الكبرى ارهاصات واضحة فى صيحات فولتير وديدرو وروسو • ونحن الآن نعيش على أبواب انقلاب اجتماعى خطير نرى ارهاصاته فى التقدم الآلى للصناعات وفى الدعاية الاشتراكية التى هى نتيجة هذا التقدم وايضا فى تقدم البيولوجية التى ستتحكم فى المستقبل القريب فى نظام الزواج والعائلة •

والآن يجب أن نلقى نظرة على القرون الوسطى فى أوروبا لنتبين فيها ارهاصات النهضة الكبرى التى يتواضع المؤرخون على أنها بدأت فى ختام القرون الوســطى سنة ١٤٥٣ عنــد ســقوط القسطنطينية فى يد الأتراك •

ولقد سميت القرون الوسطى بحق القرون المظلمة • فهى تمثل العصور التى ساد فيها الجهل والتعصب أوروبا والتى زالت فيهــا ثقافة الاغريق • وصار العلم او مسخ العلم مقصورا على الرهبان فى الأديار وكانت معارف هؤلاء مقصورة عل الآداب اللاتينيــة وعل شىء قليل من نظريات اقليدس وعلى ما ترجم من العربية الى اللاتينية عن أرسطوطاليس وافلاطون • واولهما طبيعى وثانيهما الهى •

وكان أساتذة تلك العصور يجهدون أنفسهم فى رياضة الفلسفة على أن تكون مطية للدين · وقد ريضت فلسفة ابن رشد وفلسفة تلميذه ابن ميمون لهذه الغاية · وكان علم الرهبان قائما على النقل والجدل والألفاظ بعيدا عن الابتكار يعنى أكبر عناية بدرس آباء الكنيسة ويهمل الاهمال كله اية نزعة نحو الاستقلال فى الفكر · والنزعة هى كل شىء فى ثقافة الأمم فهى التى تقرر وجهتها وتعمل لرقيها أو انحطاطها وتقدم العلم او تأخيره · فاذا كانت النزعة فى الأمم هى النقل والجدل اللفظى فانها لا تكتشف شيئا فى عالم الفكر واذا صادفها اكتشاف لم تقصد اليه لم تنتفع به · ففى القرن الثالث للميلاد مثلا عرفت البوصلة وعرفت العدسة · ومع ذلك بقى هذان الاكتشافان عدة قرون يسمع بهما الناس ولا يحاول احد ان يضع عنهما « نظرية » وعرفت أشياء مهمة مدة القرون الوسطى عن التشريح والفلك ولكن لم يحاول أحد أن يجمع هذه الاكتشافات فى نظرية · والنظرية فى العلم اداة اقتصادية لا يستهان بها تجمع المعارف المشتتة فى قاعدة واحدة وتفتح الباب لايجاد قاعدة أخرى فتتقدم بذلك العلوم · ولكن نزعة القرون الوسطى كانت كما قلنا قائمة على النقل والمعارف تجمع وتحفظ لخدمة الدين ·

وكان العرب فى اسبانيا قد اشتغلوا بالكيمياء واعتمدوا على التجربة فى خلط العناصر والمركبات فاهتدوا الى معرفة جملة اشياء كيماوية · وكانت شهوة المال هى الغاية من هذه التجارب التى كانت ترمى الى احالة المعادن الخسيسة الى ذهب · وانتقلت عدوى هذه الشهوة من اسبانيا الى أوروبا فاخذ العلماء والمشعوذون يشتغلون بالتجارب العلمية فكانت هذه نزعة جديدة اكتسبتها أوروبا من عرب الأندلس ونحن نرى أثر هذه النزعة فى روجر بيكون (مات سنة ١٢٩٢) وهو أول عالم من القرون الوسطى نحس فيه بالروح العلمية · فقد قال عن العلوم التجريبية : « ان جميع العلوم ما عدا هذا العلم اما انها تستعمل الجدل لاستنتاج النتائج

مثل العلوم النظرية واما أنها هى نفسها استنتاجات عامة ناقصة ٠ والعلم التجريبى وحده يحقق الى درجة الكمال صحة ما يمكن الطبيعة أو الفنون أو الخداع عمله ٠ فهو وحده يعلمنا كيف نقف على غباوات السحرة كما يعلمنا المنطق كيف نميز بين الصحيح والخطأ من الجدل » ٠

أليس هذا ارهاصا بالنهضة العلمية ، ولم يقنع بيكون بالكلام فانه انكب على بواتقه يحلل ويخلط الأجسام ويقال أنه صنع نوعا من البارود استخرجه من الفحم وتنبأ باختراع البواخر والميكروسكوبات ، وكان يحض الطلبة فى أكسفورد عله تعليم العربية والاغريقية والعلوم الطبيعية مما استحق لأجله أن يتهم بمزاولة السحر وان يحبس عليه ١٤ سنة بحكم البابا والكهنة ٠

هذا فى العلم ٠ ولكن النهضة الدينية كان لها ارهاصها أيضا فى شخص ويكلف الذى مات سنة ١٣٨٤ فانه ترجم التوراة الى الانجليزية وتجرأ على أن يضع مبدأ حطر خلاصته أن كلمة الانجيل هى أساس المسيحية ولا عبرة بما يقوله الكهنة مما يخالفها ٠

وبيكون وويكلف كلاهما انجليزى ولكن الشرارة التى قدحاها استطارت الى أوروبا ٠ ففى سنة ١٤٠٠ نجد كاهنا بوهيميا فى براغ ينشر على الناس مذهب ويكلف ٠ هذا الكاهن هو جون هس الذى قتل سنة ١٤١٥ ٠ وعلم البابا بنشاطه فى الدعوة الى مذهب ويكلف فامر فى سنة ١٤١٠ باحراق كتب هذا الراهب الانجليزى وحكم على هس بالحرم ٠ وحدث فى سنة ١٤١٥ أنه رحل الى كونستانس (فى المانيا) ليشترك فى مناقشات المجمع الكنسى ٠ فلما بلغ المدينة قبض عليه الكهنة وحاكموه وقضوا عليه بالقتل لهرطقته ٠ فقتل دون أن يستغفر أو يبدى أقل ضعف ٠ واحرقت كتبه امامه قبل قتله ٠

ومما هو ذو مغزى أن ثورة ويكلف وثورة هس لم تقتصر على الاصلاح الدينى فقط ٠ فان الأول أحدث ثورة بين الفلاحين فى انجلترا ٠ والثانى أحدث حركة وطنية فى بوهيميا ٠ لأن العين اذا انفتحت للفساد فى احدى نواحى النظام الاجتماعى امتد بصرها لسائر النواحى ٠ والنفس اذا نزعت نزعة النقد للدين لم يرضها التسليم بسائر الفضائح فى الحكومة أو التفـاوت الاقتصـادى أو غير ذلك ٠ ولذلك نجد أن النهضة الأوروبية لم تكن نهضة دينية فقط بل كانت نهضة أدبية وعلمية وعملية أيضا ٠ وانما كان أساس هذه النهضات الرغبة فى اصلاح الدين وكف رجاله عن أذى الناس٠ ومتى تجرأ الانسـان على أن يقف فى وجه آلهته لم يبال بعد ذلك بالقيود بل سرعان ما يحطمها وينطلق حرا قد خلع عنه مأثور السلف وأخذ ينظر بعين النقد لكل شيء ٠

النهضـة الأوروبيـة

شملت النهضة الأوروبية جملة مناحى النشاط الفـكرى فقد كان لسان حال الناهضين فى الدين يقول : « انشدوا الحق فى الكتاب المقدس ولا تبالوا بالكهنة والكنيسة » ·

ولسان حال الناهضين فى الآدب يقول : « انشدوا الحقيقة فى كتب القدماء وخاصة الاغريق ولا تبالوا بالكتاب المقدس »·

ولسان حال الناهضين فى العلم يقول : « دعنـا مما حفظناه عن أرسطوطاليس وجالينوس وأعمد الى بوتقتك وجرب وخذ مشرطك وشرح » ·

وبعبارة أخرى نقول أن النهضة بأنواعها قد استقت روح التجديد من ثلاث مصادر :

١ ـ الآدب وفنونه من الاغريق القدماء · وقد ابتدأت دراسة الاغريقية بعد أن ماتت فى أوروبا نحو الف سنة فى ايطاليا ثم انتشرت عندما استولى الأتراك على القسطنطينية فهجرها الرهبان وكانوا يدرسون هذه اللغة ·

٢ ـ العلوم التجريبية من عرب الأندلس ·

٣ ـ دراسة الكتاب المقدس من العبرانية والاغريقية ·

ولكن كان هناك للنهضة دافع آخر يدفعها الى العمل نعنى به سد طريق التجارة بين أوروبا وآسيا باستيلاء الأتراك على سوريا ومصر فان مصر وسوريا عمهما الخـراب لسد هذه الطريق وعـدم

انتفاعهما بمرور التجارة بين القارتين • ولكن أوروبا انتفعت بغباوة الأتراك فعمدت الى اكتشافاتها الجغرافية العظيمة : ويمكن أن يقال أن هذه الاكتشافات كانت نتيجة النهضة • وهذا صحيح• ولكنها كانت أيضا دافعا آخر يجرىء الناهضين فى العلم والآدب والفلسفة والدين على التفكير الحر الجرىء • فان الراهب العالم الذى كان يدرس كتب القديس أوغسطين وينظر اليها نظرة الاحترام التى ينظر بها الى الكتب المقدسة تزعزع ايمانه به وبغيره من القدماء عندما رأى أنه كان يجزم بان القول بوجود ناس فى الجهة الأخرى من الكرة الأرضية هرطقة لأن هذه الجهة لم ير سكانها المسيح الذى جاء لجميع البشر • ألم يرى هو أن كولمبوس قد اكتشف أميركا سنة ١٤٩٢ وان فاسكو دى غاما قد بلغ جزائر الهند سنة ١٤٩٩ ؟

ولم يكن الشك فى آباء الكنيسة فقط بل تعدى الى أرسطوطاليس نفسه • فقد كانت كلمة أرسطوطاليس هى العليا تتحطم الرؤوس فى تفسيرها ولا تستطيع معارضتها طول مدة القرون الوسطى وحسبك دليلا على مكانة هذا الفيلسوف ان الرشديين والميمونيين كان لكل منهم فلسفة تعارض احداها الأخرى • وكانت كلتاهما مع ذلك قائمة على أساس فلسفة أرسوطاليس • كان أقوال هذا الاغريقي العظيم أصبحت ناموسا طبيعيا يتفهمه الناس ولا يستطيعون انكاره وان كانوا يختلفون فى تفسيره • فقد كان يقول بان الأرض مركز الكون • وعاشت هذه العقيدة نحو الفى سنة حتى كانت النهضة الأوروبية • فاننا نجد نقولا كاسا الذى مات سنة ١٤٦٤ يعلن عن شكه فيها فى هوادة وضعف بقوله : « لقد فكرت كثيرا وظنى ان الأرض غير ثابتة وانها تتحرك كما تتحرك الكواكب ••• واظن أنها تدور حول محورها مرة كل يوم » •

ولم يضطهد كاسا لهذه الظنون الخطيرة لأن رجال الدين لم يفطنوا لمرماها البعيد •

المطبعة

اعتدنا رؤية الكتب والصحف نقتنيها ونقرأها بل نطرحها لكثرتها ولقلة أثمانها حتى ليكاد يتعذر علينا أن نتصور زمنا كان يعيش فيه الناس بلا كتب أو صحف طبوعة . ومع ذلك فان هذا كان الواقع الى قبل القرن الخامس عشر . ولم يكن فن الطبع نفسه مجهولا فان الشرقيين والغربيين كانوا يعرفون الأختام منذ زمن بعيد ويطبعونها على المراسيم والمنشورات . وكانت أوراق الكوتشينة معروفة تباع للناس مطبوعة قبل أن تخترع طباعة الكتب بأكثر من قرن . ومع ذلك لم يكفر أحد فى طباعة الكتب الا فى قرن النهضة ، القرن الخامس عشر . وانما كان ذلك لأن نزعة النهضة لم تكن بعد قد أشربت بها النفوس . والانسان يعمى عن أبسط الأشياء ما لم تمتلك نفسه نزعة خاصة تجعله ينقب ويبحث ويتساءل ويشك ويجرب . وكان الناس فى أوروبا مدة القرون الوسطى لا يعرفون من العلم سوى ما قاله السلف الصالح يقضون أوقاتهم فى تفسير أقوالهم على نحو ما يفعل بعض الشرقيين الذين هم نكبة الشرق الآن .

وتنسب الطباعة الحديثة الى جوتنبرج الألمانى الذى مات سنة ١٤٦٨ . فهو الذى صنع الحروف المنفصلة وطبع بها عدة كتب لايزال يوجد منها للآ فى متحف مينز توراة مطبوعة بالاتينية ومعجم لاتينى وجزء من تقويم . وهذه أسياء ضئيلة القيمة فى ذاتها ولكن

جوتنبرج أشعل شرارة لو كان علم الرجعيون بمبلغ النـــار التى ستؤججها فيما بعد لوأدوا المطبعة فى مهدها · فأنه ما جاء القرن السادس عشر حتى انتشرت المطابع وصارت الكتب تخرج منهـا بالآلاف واضحة الخط رخيصة الثمن فأقبل عليها الجمهور يستنير بهذه المعارف التى كانت قبلا وقفا على الأغنياء · ورأى الكهنـة أنهم أمام تيار قوى من الثقـافة يكاد يطمو بهم ويغـرقهم فالفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التى لا توافق الكنيسة على نشرها · وكانوا ينشرون أسماء هذه الكتب فيما يسمى « القائمة » أو « الدليل » ·

ولكن هذه « القائمة » بدلا من أن ترد الناس عن قراءة هذه الكتب كانت تحثهم على اقتنائها · وكان الطبـاعون فى المانيـا وهولاندا يبعثون وكلائهم لكى يبحثوا عن الكتب الواردة بقائمـة الحرم فينسخوها · وكانت « قائمة» الكنيسة اكبر اعلان للكتاب · وصار للمطابع الشـهيرة فى أوروبا وكـلاء يقيمون فى روميـة وينسخون الكتب الواردة بالقائمة وينفذونها الى مطابعهم مغتبطين بتحريم الكنيـة لها لأن هذا التحريم · كان أكبر ضمان لرواجها ·

ويطول بنا الكلام اذا أردنا أن نتتبع الاضطهادات التى نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات · بل آلة الطبـاعة نفسها وهى قطع مؤلفة من جماد لا يحس نالت شيئا من الاضطهاد لأنه كان يحكم باغلاقها كأنها جسم حى ينشر الفسـاد بين الناس ويعاقب بتعطيله · ولكن « قائمة » الكنيسة واحراق الكتب واضطهاد المؤلفين وحبس الطابعين وتعطيل المطابع كل هذه لم تستطع أن تمنع الثقافة من الانتشار لأن فكر الانسان وشهوته للتطور يأبيان الا أن يشقا لهما طريقا من وسط الاضطهاد نحو الحرية والسمو · وخير ما يقال عن الطباعة ما قاله ملتون الشاعر الانجليزى سنة ١٦٤٤ فاننا

نحن فى مصر ما زلنا فى حاجة الى أن نفهم هذا الكلام · فقد تكلم ملتون عن مراقبة الطباعة وقال انها تؤدى « الى تثبيط الثقافة ووقف المعارف وذلك ليس فقط بتعجيز كفاياتنا وثلمها فى فحص ما نعرفه بل أيضا باعاقة الاكتشافات الجديدة التى كان يمكن أن نكتشف سواء فى الحكمة الدينية أو الحكمة المدنية » واذا كان تيار الحقيقة « لا يتدفق ماؤه ويسير قدما فانه يأسن ويستحيل بركة كدرة قوامها التجانس والتقاليد » · ثم يضرب المثل بالأقطار التى بهـا رقابة على المطبوعات ويقـول : « أنظروا الى ايطـاليا وأسبانيا ها هما أحسن حالا بمثقال ذرة أو هل هما اشرف أو أحكم أو أطهر بما اكتسبته كل منهما من قسـوة محـكمة التفتيش فى معاملتها للكتب ؟ » وأيضا : « أعطنى الحرية فى أن أعرف وأن أقول وأن أناقش كما يملى على ضميرى قبل أن تعطينى أية حرية أخرى » ·

ونحن الآن فى سنة ١٩٢٧ لم نبلغ بعد حرية الطباعة · فالى الآن تحاكم المخالفات البسيطة التى يرتكبها الصحفيون أمام محاكم الجنايات ويحرمون بذلك من حق يناله اللص والسكير والبغى · ونحن للآن يحتاج الراغب فى انشاء جريدة أن يجتاز بعدة عراقيل كثيرا ما تمنعه من تحقيق غرضه · فى حين أن الراغب فى فتح قهوة أو من يتجر بالخمر لا يجد مثل هذه العراقيل · وحرية التمثيل لا تزال للآن تحت مراقبة الحكومة ·

البروتستانتيـــة

نجحت البروتستانتية لأنها جاءت فى وقت كان قد ان فيــه أن تنجح · فقد خرج قبلهـــا كثيرون على رومية طوائف وأفــرادا ولكنهم لم ينجحوا لأن الزمن لم يكن قد نضج بعد للنجاح ·

نجحت البروتستنتية لشيئين :

١ ـ لأن البابوية كانت قد طمت وطغت بحيث كان الناس قد سئموا المظالم التى ارتكبتها محاكم التفتيش ·

٢ ظهور مبدأ القوميات سبب آخر النهضة البروتستانتية · فان الملوك والأمراء الذين كانوا يحكمون أوروبا فى شمال الألب كانوا يغارون من سلطة البابا ويميلون الى الاستقلال منه ورأوا أن فى الانفصال الدينى من كنيسة رومية زيادة فى نفوذهم وسلطانهم فروجوا لذلك الدعاية البروتستانتية فى بلادهم ·

وصاحب الدعاية البروتســتانتية هو لوثر ولد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٤٦ وهو ألمانى الدم والمنشأ والوطن بدأ حياته راهبا ثم صار أستاذا للفقه فى جامعة وتنبرج · وفى سنة ١٥١٧ جاء المدينة راهب يبيع الغفرانات فأعلن لوثر أن هذا العمل ينــاقض المسيحية · وعقدت على أثر ذلك مؤتمرات من الكهنة نوقش فيها لوثر فأصر على تخطئة كنيسة رومية وطبع ثلاث رسائل يوضح فيها مذهبه وينتقد البابوية وأذاع البابا منشورا سنة ١٥٢٠ يجحد

فيه آراء لوثر · فأخذ لوثر هذا المنشـور وأحـرقه على المـلأ فى وتنبرج ·

وصح عندئذ فى أذهان الألمان أن النزاع بين لوثر وبين البابا هو نزاع بين الحرية والتقييد وبين القومية والشيوعية المسيحية فانضموا الى لوثر · وفى سنة ١٥٢١ ترجم لوثر التوراة والانجيل الى الألمانية · وكان لا يقرأ قبلا الا فى لغة الشيوعية المسيحية ، اللغة اللاتينية · وفى سنة ١٥٢٥ قطع الطريق بينه وبين رومية بأن تزوج راهبة · وعاش عيشة هنية الى أن مات سنة ١٥٤٦ ·

والآن ماذا ربح العالم من خروج لوثر على كنيسة رومية ؟ كان أول الرابحين الكنيسة الكاثوليكية نفسـها ، كنيسة رومية · فانها عندما رأت الصدمات تتوالى عليها وأوروبا ينشق نصفها منها ويعمل على ازالتها من الوجود اضطرت الى الاعتـدال والضـبط والاصلاح فألغت بيع الغفرانات فنزلت محكمة التفتيش عن بعض قساوتها وضبط البابوات أنفسهم فلم يعد يرؤس الكنيسة أمثال بورجيا · واصطلح حال الرهبان وظهرت شيعة اليسوعيين الذين كانوا مثالا للهمة فى خدمة الدين والعلم معا ·

وكان ظهور البروتستانتية ربحا للحرية الفكرية لأنها وان كانت قد ظلمت وطغت أيضا الا أنها لم يكن بها « محكمة تفتيش » ولا قتل ولا احراق ولا مصادرة مما كان فاشيا وقتئذ · ثم أن وجود مذهبين سهل على الناس الجراءة على دعاوى الكنيسة وحرر البحث الدينى بعض التحرر من القيود الاستبدادية التى كان يضعها البابا ·

ثم أن ترجمة التوراة والانجيل للغات أوربا الحديثة جعل الناس يدرسونهما وينقدونهما لأنهما كانا قبلا وقفا على من يعرف اللاتينية · أما الآن فان بروتستانتى صار يمكنه الدرس والنقد ما دام يقرأ لغة بلاده ·

وليس من شأننا أن نبين الفرق المذهبى بين البروتســتانتية والكاثوليكية ٠ وانما خلاصة ما يمكن أن يقال فى ذلك أن الكاهن فى الكاثوليكية وسيط بين المسيحى وربه أما فى البروتستانتية فهو مرشد فقط ٠

أرازموس

فى هذا الفصل وفى بضعة فصول تالية سنترجم بحياة طائفة من زعماء التفكير كل منهم يمثل طرازا خاصا من هذا التفكير من عهد النهضة الى القرن الثامن عشر · وفى خلال هذه التراجم سيرى القارىء مناظر عدة للكفاح بين الفكر الانسانى الذى يبغى الانطلاق والحرية وبين القيود التى وضعها الجمود لحبسه وكبحه ·

ويجب أن نضع فى أول قائمة هؤلاء الأبطال ارازموس الذى ولد سنة ١٤٦٦ ومات سنة ١٥٣٦ · فانه كان يمثل النزعة الى الدرس والثقافة · وليس شىء يعمل للحرية الفكرية ويضمن بقاءها ويحث على الدفاع عنها مثل الثقافة الواسعة المتشعبة لأن الوقوف على الآراء المختلفة والمتناقضة يشبع القلب بروح التسامح وكراهة التعصب ·

ولد أرازموس فى هولندا وكان يشبه دافنشى أحد رجال النهضة أيضا فى ايطاليا من حيث أن كليهما كان ثمرة السفاح · وتربى فى مدارس هولندا وأديارها ثم رحل الى باريس ومنها الى انجلترا حيث أقام باكسفورد مدة عرف فيها توماس مور صاحب الطوبى المشهورة وهناك تعلم اليونانية · ثم ارتحل الى القارة ثانيا وعاد الى كمبردج بانجلترا فدرس اليونانية · وأخيرا قر قراره فى بازل فى سويسرا وأخرج فيها معظم مؤلفاته وكان يرتحل عنها ثم يعود اليها حيث مات سنة ١٥٣٦ ·

ورأى أرازموس فى حياته انقلابين عظيمين فى الأفكار أولهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وثانيهما ترجمة لوثر للكتاب المقدس سنة ١٥٢٢ وكان هو نفسه جديرا بهذا العمل الأخير بل كان أجدر من لوثر به لأنه كان أثقف منه وأعرف باللاتينية واليونانية · ولكن نزعته كانت أميل للثقافة والدرس منها الى الكفاح والمصادمة بل يمكن أن نقول انه كان جبانا يخشى النار التى كانت تعد للمهرطقين· فكان يصادق الكاثوليك والبروتستانت معا ويعيش فى ايطاليا حيث محكمة التفتيش كما يعيش فى المانيا حيث كانت تبلغ الحماسة للمذهب الجديد درجة التعصب المؤذى · وكان تنقله هذا بين المذهبين ثم ثقافته الواسعة فى أدب الاغريق والرومان القدماء وأيضا روح الجراءة الذى ابتعثه فى النفوس اكتشاف أميركا كل هذه جعلته يقول بالتسامح ويدعو اليه ·

وأكبر مآثر أرازموس طبعه للانجيل سنة ١٥١٦ باللغة اللاتينية تقابلها الاغريقية صفحة بعد صفحة · فانه بهذا العمل افتتح عصرا جديدا لدرس الانجيل درسا تاريخيا دقيقا · ثم أنه محص كتب القدماء وحررها من نسخ النساخ وأعاد طبعها فابتعث فى النفوس ذوق الدرس لهؤلاء القدماء · أما عن التآليف فانه لم يضع سوى كتاب واحد هو « مدح الجنون » وسائر حياته قضاه فى تحرير الكتب القديمة ·

و « مدح الجنون » هذا من الكتب الفريدة التى أثرت أثرا كبيرا فى عصر النهضة · فانه وضعه على طريقة « دون كيشوت » وضمنه المجون والتهكم عن الأوضاع والأنظمة السائدة فى عصره تكلم فيه عن تنطع العلماء وجهل الجهلاء ولم يترك فيه أحدا ذا مكانة من البابا الى الرهبان ومن الملوك الى الجنود حتى أذاه بغمزة وعرض به · وعبرة الكتاب التى يستخرجها القارىء منه أن العالم حافل بالأغلاط والمساوىء وانه يحسن بنا أن نتسامح لأنه ليس لأحد منا أن يعتز بعلمه ويتيه به على الناس · وانه خير لنا أن ننظر

الى الانجيل ليس باعتبار أنه شريعة للناس تسن لهم نظام الحكم والمعيشة بل حسبنا منه أن يكون مرشدا لنا فى الأخلاق ٠

ومن الناس من ينقم على أرازموس أنه كان مع تشبعه بروح العصر ومع معرفته بفضائح زمانه لم يعمد الى الثورة كما فعل لوثر ٠ وقد أجاب هو على ذلك بقوله أنه « لو امتحن لفعل مثلما فعل بطرس » أى أنه ينكر سيده وينكر الحق حقنا لدمه ٠ والحقيقة أن مهمة الرجل كانت مقصورة على نشر الثقافة والنقد فهو أديب درس وألف وعمم المعارف ولم يكن خطيبا يكافح ويناضل ٠

رابليــــه

ولد رابليه فى اقليم تورين فى فرنسا سنة ١٤٩٠ ومات سـنة ١٥٥٣ وتعلم فى مدارس الرهبان فى فرنسا وسلك فى سلك الرهبانية الى أن بلغ الأربعين حين جحد حياة النسك وخرج الى الدنيا سـنة ١٥٣٠ . ومما يؤثر عنه مدة تلمذته أنه اكب على الاغريقية فتعلمها وضبطت فى صومعته عدة كتب لهيرودوتس وغيره فطـرد من الدير وانتقل الى دير آخر أخف رقابة منه .

وخرج من الرهبانية وهو فى الأربعين فتتلمذ من جديد ودرس الطب فى مونبلييه ونال لقب الدكتورية بعد سبع سنوات سنة ١٥٣٧ والتحق بمستشفى ليون وهناك أخذ يحرر الكتب القديمة ويطبعها على نحو ما كان يفعل ارازموس . وزار ايطـــاليا وألمانيا ثم عاد الى باريس ومات سنة ١٥٥٣ .

ويمتاز رابليه على ارازموس بشىء آخر غير حب الثقـــافة والدرس ونشر الكتب القديمة وذلك أنه نزع نزعة علميـة فأخـــذ يدرس التشريح . وكانت الكنيسة تنكر هذا العلم انكارها للتوســع فى درس القدماء اذ كانت تخشى من القدماء روح الحرية التى كانت تتسم بها كتب الاغريق والرومان كمـــا كانت تخشى أيضـــا نبش النسخ الاغريقية القديمة للكتاب المقدس ومعارضتها بما كان شائعا منه . وكانت أيضا تخشى الروح العلمية لما فيها من نزعة التجـــربة وايثار حكم ألواقع على حكم التقاليد .

ويعزى الى رابليه أكبر حادث فى الأدب الفرنسى فانه فى سنة ١٥٣٢ تجرأ ووضع أول كتاب باللغة السرنسية العامية ٠ وكان قد مضى على فرنسا أكثر من الف سنة لا يقرأ فيها من الكتب سوى ما كانت لغته باللاتينية ٠ فكان الفرنسى اذا أراد أن يخرج من الأمية وجب عليه أن يتعلم هذه « الهيروغليفية » ٠ يتعلمها متعسرا ويقرأها متعسرا ويرطنها مع الرهبان رطانة قلما يستطيع أن يؤدى بها أبسط أفكاره ٠ فاذا خرج من الدير أو من المدرسة تكلم مع بنى وطنه بالفرنسية ٠ فكان يفكر برأسين : رأس يشافه به الناس فى الأسواق والمنزل والحقول ولغة هذا الرأس هى الفرنسية ٠ ورأس يحتفظ به للكتب والدرس والثقافة ولغة هذا الرأس هى اللاتينية ٠

ووضع رابليه كتابا بلغة العامة هو كتاب « حياة جرجنتوا وابنه بنطجرويل وأقوالهما وأعمالهما » وهو اسطورة عن عملاقين تخيلهما رابليه من عالم الوهم لكى يحمل بهما على عالم الحقيقة وغايته أن يثبت أن الأصل فى طبيعة الانسان طيبة العنصر وصدق النظر وصحة الحكم وأنه لا يفسده سوى التقاليد والقيود التى يضعها الدين ٠ ومع أن الكتاب خيالى اللهجة والأشخاص فان جامعة السوربون جحدته وحكم برلمان باريس باحراقه ٠ ولم يضطهد رابليه بأكثر من ذلك فان اللهجة التى اتخذها فى رواية أسطورته كانت حائلا دون محاكمته ٠

وتنحصر خدمة رابليه للحرية الفكرية فى أنه :

١ ــ أطلق الذهن الفرنسى من قيود الأداء اللاتينية وجعل الفرنسية لغة الثقافة والدرس ٠

٢ ــ نزع نزعة علمية بدرس التشريح ٠

٣ ــ سار فى النهج الذى اختطه قبله أرازموس بدرس القدماء

وتوسيع الذهن بالوقـــوف على فلاســـفة الاغريق والرومان وتحرير كتبهم ٠

٤ ـ وضع الطبيعة البشرية أمام التقاليد الدينية وآثر الأولى على الثـــانية ٠

ســـوزتين

سبقت ايطاليا سائر الأمم الأوربية فى ترويج النهضة · وكانت ايطاليا خاصة تمتاز فى طبع الكتب أو نسخها من سائر الأقطـار · ففى القرن السادس عشر بينما كان لا يوجـد فى انجلترا سوى ست عشرة بلدة بها مطابع وبالمانيا عشرين كان بايطاليا مائة بلدة تحتوى كل منها على مطبعة تعمل ليل نهار جادة فى طبع الكتب ونشـرها على الناس · وكان الأمراء الذين يروجــــون الدعاية للنهضة فى ايطاليا عديدين منهم البابا نقولا الخامس ومنهم الفونس أمير نابولى ومنهم أسرة مديتشى ومنهم البابا ليون العاشر · فان كل هـــؤلاء وغيرهم كانوا يكترون الكتبة لنسخ الكتب القديمة من الاديار لمكاتبهم أو كانوا يأمرون بطبعها ونشرها على الناس · وانت أيها القــارىء العربى يجب أن تذكر ان أول ما طبع من الكتب العربية فى العـــالم انما كان فى ايطاليا بأمر باباوات رومية ·

ولكن مع أن ايطاليا تولت زعامة النهضة مدة طويلة وأخرجت من مطابعها مئات الكتب التى كانت محبوسة فى أديارها ونشرتهـا على الناس فانها لم تتأثر قط بالنهضـة الدينية بل بقيت كما كـانت كاثوليكية وعاشت فيها محكمة التفتيش الى سنة ١٨٧٠ · ويرجع ذلك الى اقامة البابوية فى رومية وتسلطها على البلاد بجيش جرار من الكهنة والرهبان · فقد كانت رومية منذ القرن الرابع المســيحى الى الآن معسكر النصرانية الأكبر ينضوى الى لوائها جميع الأولياء لهـــذا الدين ·

ولكن مع جدوبة التربة الايطالية لبذور الاصلاحات الدينية نجد أن شهوة التطور الدينى قد تملكت بعض الأفراد والأسر فى ايطاليا · وأسرة سوزينى تعد فى طليعة هؤلاء نشأ منها اثنان عمل كلاهما للتحرير الدينى فى ايطاليا · وسنقنع بترجمة واحد من هذه الأسر هو فوستوس سوزينى ·

ورث فوستوس عن جده ضيعة صغيرة ولم يتزوج الا بعد أن بلغ الخمسين فاستطاع بذلك أن يعيش مستقلا يرصد وقته للدرس خاليا من هموم العائلة والمعاش · وزار فرنسا وأقام فى ليون مدة ثم عاد الى ايطاليا سنة ١٥٦٣ · واجتاز فى عودته بمدينة جنيف فرأى حكومة كالفن وكيف تكون المسيحية عندما تستحيل شريعة يتعامل بها الناس مما سنشرحه بعد · وأمضى بعد ذلك ١٢ سنة فى خدمة احدى اميرات أسرة مديتشى المدعوة ايزابلا · ثم غادر ايطاليا الى بازل فى سويسرا حيث أكب على ترجمة المزامير الى اللغة العامية الايطالية وأخذ فى تأليف كتاب عن حياة المسيح · وقد اطلق على كتابة اسم « المسيح الخادم » وهو اسم ذو مغزى يدل على الروح الجديدة التى صار ينظر بها الناس الى المسيح والى الكنيسة· فان المسيحية كانت الى هذا الوقت ديانة تمثلها كنيسة قوية تسيطر على عقول الناس وأجسامهم وتتخذ هيئة السيد أمام العبيد · ولكن فوستوس أراد أن يضع المسيح موضع الخادم للناس وأن يعود بالناس الى ديانة المسيح التى نجدها فى الانجيل ديانة التواضع والتسامح والخدمة العامة لا ديانة بولس الشائعة فى زمنه ديانة الكنائس والكهنة ومحاكم التفتيش ·

ولم يقع فوستوس بكلمة فى كل ما كتبه يمكن محكمة التفتيش أن تؤاخذه عليها وكذلك لم يذكر كتابه أو مزاميره المترجمة فى « الدليل » · فقد كان فوستوس يعيش كما قلنا بما يحمل اليه من ريع ضيعة صغيرة فى ايطاليا · فكان لذلك يحرص على ألا يغضب محكمة التفتيش التى كان أهون ما عندها من عقاب مصادرة المالك

فى ملكه · ومما ساعده على الحذر والحيطة فى كتابته انه كان أصم والصمم على الدوام من دواعى الحذر · وكان من حذره أن يصطنع أسماء مختلفة وان يداور فى العبارة ويقنع بالتلميح دون التصريح ·

وكانت أوربا فى ذلك الوقت ميدانا للحماسة الدينية يقتتل فيه المذهبان القديم والجـــديد أو الكاثوليكية والبروتستانتية · وكانت الحماسة تغلى أحيانا الى درجة التعصب والاضـــطهاد · وكانت بولندا فى ذلك الوقت ملجأ للاحرار · فقـــد كان لها برلمان غريب لا يمكن ان يصدر عنه قانون ما دام عضو واحد يعارض فى اصداره· فكان هذا النظـــام مانعا من اشــتراع أية شرعية يراد بها اضطهاد أحـــد ·

وكان فى بولندا طبيب ايطالى قرأ تاريخ المسيح الذى ألفـــه سوزينى فأعجب به واستدعاه من بازل الى بولندا · فرحل من بازل الى بولندا وقضى فيها سائر عمره الى أن مات سنة ١٦٠٤ وهنـــاك وضع كتابه « تعليم راكوف » فى ضرورة التسامح ننقل منــه هــذه القطعة الآتية :

« فلندع كل انسان حرا للحكم على دينه لأن هذه القـــاعدة التى يبسطها لنا « العهد الجديد » ولأننا نجد تعاليم الكنيسة الأولى تقول بها · ومن نحن ـ نحن الأشقياء ـ حتى نخنق ونطفىء فى الآخرين نار الروح المقدســـة التى أشعلها الله فيهـم ؟ هـل احتكر أحد منا معرفة الكتب المقدسة ؟ ولم لا نتذكر أن سيدنا الوحيد هـو يسوع المسيح واننا جميعا اخـوة ليس لأحد منـا أن يسـيطر على نفوس الآخرين ؟ وليس من ينكر أن يكون أحد منا أعلم من الآخرين ولكننا نستوى جميعا فى الحرية وفى علاقاتنا بالمسيح » ·

وهذا كلام بديع ولكنه جاء فى غير أوانه فانه عندما نشـــر كتاب سوزينى عن المسيح فى كراكوف حدث هرج واضطراب فى المدينة من العامة كاد يودى بالمؤلف · وكان أكبر ما دعا العـــامة الى الاضطراب انكار سوزينى لعقيدة التثليث ·

موتين

للوسط تأثير فى مزاج الشخص من حيث التسامح أو التشدد كما أن له تأثير فى اعتباره للفضائل وقيمة ممارستها • فالتجـار مثلا احرص على انجاز وعودهم من الزراع والصناع والموظفين • وليس ذلك لأنهم أشرف نفسا أو أدق ذمة وانما هم يحافظـون على وعودهم لأن التجارة تتطلب ذلك • ولانجاح لها الا اذا كانت كلمة التاجر التى يشافه بها تاجرا أو معاملا تقوم مقام الوعد المكتوب • ومن رأى أعمال البورصة وكيف تقطع الوعـود فتأتى بالربح أو الخسارة فلا يمكن أحد الطرفين التخلص منها مع أنها لم تقطع الا مشافهة ، أو من رأى الصاغة وهم ينقلون المصـوغات الثمينة من حانوت الى آخر بلا وزن يعجب من مبلغ امانة هؤلاء التجار وخاصة اذا قابلها بما يعرفه عن سائر الأفراد من الصـناع أو الزراع أو غيرهم • وليس مرجع هذه الأمانة الى فضل خاص يختص به التاجر دون غيره وانما التجارة فى ذاتها تحتاج الى الأمانة الشديدة فى المعاملة وانجاز الوعود الشفاهية • ومن هنا امتياز أمة تجارية مثل الانجليز بالأمانة فى المعـاملة •

ولكن التاجر يمتاز بشىء آخر • وهذا لأنه لاحتياجه الى معاملة جميع الطوائف من جميع الملل يضطر الى التسامح • فصـاحب الحانوت الذى ينتظر رزقه من كل غاد ورائح لا يسـتطيع ان يسب اليهود أو يرفض بيع ما عنده من السلع لملحد أو يأبى أن يربح فى صفقة على يد كافر بدينه لأنه يعرف أن التشدد ــ ناهيك بالتعصب ــ

يحصر عدد معامليه فى حين هو يرغب فى زيادتهم · ولهـذا السبب نجد المدن أكثر تسامحا من الأرياف ·

وقد نشأ مونتين فى وسط تجارى · كان أبوه يتجر بالسـمك وكانت أمه ترجع فى نسبها الى دم أسبانى يهـودى فكانت هـذه الظروف الخاصة تعمل لكى ينشأ كارها للتعصب · ثم رأى أيضا فى حياته مقتلة سـان بارتولوميه سنة ١٥٧٢ حين فتكت الكنيسـة الكاثوليكية والحكومة الفرنسية بنحـو ٢٥٠٠٠ فرنسى بروتستانتى ورأى أن الكنيسة لم يثب اليها رشدها بعد هذه المقتلة الفظيعة بـل تغلغلت فى الضلال والفساد وأنشأ البابا غريغورى الثـالث عشـر نوطا فى ذكر هذه المقتلة ·

ولد مونتين سـنة ١٥٣٣ ومات سـنة ١٥٩٢ وتعلم اللاتينية ودرس القانون وتعين قاضيا فى المحـاكم الفرنسية ثم سـاح فى سويسرا وايطاليا والمانيا ثم عاد الى فرنسا حيث صار محـافظا لمدينة بوردو · وبعد ذلك عاش فى باريس ·

ويذكر مونتين الآن بمقالاته التى عالج فيها جملة مواضيع · ومن هذه المقالات واحدة عنوانها « عن حرية الضمير » تكلم فيها عن يوليان الامبراطور الكافر وجعله مثالا صالحا للتسامح الذى يجب أن يتصف به الملك أو الأمير حتى يعيش فى كنفه جميع الناس مهمـا اختلفت عقائدهم الدينية ·

وقد احتاج مونتين الى مداراة الكنيسة فكان يذهب للصـلاة كل أحد يتقى بذلك غضب الكهنة · وكان لا يقول برأى الا بلهجـة الاعتدال فى صورة التساؤل : « ماذا نعرف ؟ » ·

وكان من أثره أنه خفف ضغط الكنيسة للناس وطبعت مقالاته الأذهان بطابع التسامح الذى تتسم به الثقافة الأوربية الآن ·

مـونتين

فى سنة ١٦٠٠ فى رومية المدينة الخالدة فى اليوم السابع عشر من فبراير جمع كدس من الحطب · وأخرج من السجن رجـل كان قد قضى فيه ست سنوات · وكان الرجل شاحب الوجه نحيـل الجسم مضت عليه أيام وهو يؤخذ من سجنه الى محكمة التفتيش فيطلب منه كهنة المحكمة أن يجحد مقالته فى المسيح والله والقيامة · فيرفض الرجل · فيعاد الى السجن ثم يعاد استجوابه فيصر الرجـل على الرفض · وأخيرا تحكم عليه محكمة التفتيش بالاحراق · فيسمع الحكم وهو هادىء مطمئن ويخرج من المحكمة الى النار التى أعدها شياطين الانس وهو يقول لكهنة المحكمة : « لعلكم أيها القضاة وأنتم تنطقون بهذا الحـكم تحسـون من الفزع والرعب أكثر مما أحس أنا عند سماعى له » ·

ويساق عندئذ الى النار فلا تمضى دقائق حتى يصير رمادا ·

هذا الرجل هو برونو الايطالى ولد سنة ١٥٤٨ واستشهد سنة ١٦٠٠ · نشأ فى نابولى وترشح للرهبانية ورسم راهبا دومينيكيا · ثم وقع له أنه لا يؤمن بالانجيل فهجر ايطاليا وجاب أقطـار أوربا يطرأ على البلدة فيقيم بها أياما أو أشـهرا حتى اذا علمت الشرطة بخبره أعلنوه بتركها فيرحل عنها الى غيرها وهو على وجل متصل من الكبس والمصادرة · وذلك لأن برونو كان يختلف عمن سبقوه من رجال الحرية الفكرية من حيث الجراءة والغلو · فبينما كان اولئك ينكرون بعض العقائد فى الانجيل كان هو ينكر الانجيـل كله ويجاهر

بعدم ربوبية المسيح ، فلم يكن يلقى غير النظر الشزر من جميـــع المسيحيين المتعصبية والمتسامحين الكاثوليك والبروتستانت · وبينما كان رجال النهضة يقولون بالرجوع الى الاغريق كان هو ينكر على جميع القدماء أى سلطان الفكر ويقول مع دلاراميه الفرنسى · «دعوا الموتى يدفنون موتاهم» ·

ومضى برونو فى رحلاته فأقام أشهرا فى تولوز ثم انتقـل الى باريس وهناك تعين موظفا فى سفارة فرنسا بلندن فرحل الى لنـدن ثم عاد الى ألمانيا ومنها قصد الى براغ · وفى كل هذه البلدان لـم يجد أحدا يحميه من الكبس والطرد · وكانت شهرته تسبقه فلا تكاد قدماه تطآن احدى البلاد حتى يرى مندوب الحكومة يسـتعجله فى الرحيل · ولكنه طول هذا الوقت كان لا يهدأ عن الكتابة يتهكم بالدين ويحمـــل على المضـــطهدين وتجرى عا ، قلمــه مثل هذه العبارات المخطرة : « ليس للحكومة حق فى أن تعير للنـــاس تفكيرهم » أو : « ليس للهيئة الاجتماعية أن تعاقب بالسيف أولئك الذين ينشـــقون عن عقـائدهم الشائعة » ·

وكان لأرسطوطاليس فى عهده سلطان يشـبه سلطان الدين حتى كان الطالب فى جامعة اكسفورد يغرم بغـــرامة قدرها عشرة شلنات اذا هفا هفوة تخالف تعاليم هذا الفيلسوف · وكان برونو قد أخذ يدرس الفلك فكان يكفر بتعاليم ارسطوطاليس فى الفلك ويجاهر بتـــأييده لنظـريات كوبرنيكوس · وكوبر نيـــكوس هـذا من رجال النهضة الذين جحدوا فلك القدماء وقال بأن الأرض تدور هى وسائر الكواكب حول الشمس ·

وعلى ذلك كان كفر برونو مزدوجا بالانجيل وبالقدماء · فمــا هو أن يمم شطر البندقية وهدأ بها أياما حتى كبسه رجال محـــكمة التفتيش وحملوه الى رومية حيث بقى أكثر من ست سـنوات يعــانى مرارة السجن وآلامه · وفى ختام هذه الآلام اشعلت النار أمـــام

جمهور من أهل رومية يطيف به وهو يمشى اليها بقدم ثابتة ·

ولكن الدرامة لم تتم فصولا · فان برونو تقدم الى النار سنة ١٦٠٠ وقلبه معمور بايمانه بنفسه وبالحقيقة لا تدمـــع له عين ولا ترتجف له يد · وبعد ٣٠٠ سنة من احراقه كان البابا يبكى لأن أهل رومية قد أقاموا تمثالا لبرونو فى المكان الذى أحرق فيه ···

وهكذا يكتب الانتصار للحرية على الاستعباد ·

وليس يجدى القارىء أن نسرد له عقائد برونو فى العلم والدين لأنه هو نفسه لم يستشهد من أجل هذه العقائد بالذات بل من أجـــل حقه فى الحرية الفكرية فى أن يعتقد ما يشاء · وانما نقول انه كان يمتاز بمسحة « حديثة » على عقائده فكان يقول بأن النجوم شموس حولها كواكبها تدور مثلما تدور أرضـــنا وســائر الكواكب حول الشمس · وكان يقول ان الله هو روح المادة وان الكون غير متناه · وكان يقول كما قال ابن رشد من قبل ان الدين انما تقصد به منفعــة العــامة فقط · أما العلمــاء ففى غنى عنه بعلمهم ·

الدين شريعـــة

ليس هذا الكتاب دعوة الى كراهية الدين وانما هو دفاع عن حرية الشخص فى اختيار دينه كما يراه فى مرآة ذهنه وضميره ٠ وبعبارة أخرى نقول ان الدين يؤذى النـــاس اذا كانت الحــكومة تسومهم اياه لأنه يقف حاجزا دون حرية التفكير وحرية الاعتقاد ٠

ليس انسان يستطيع أن يعيش بلا دين ما لم يكن أبله أو مغفــلا لأن الدين ليس فى الحقيقة سوى استقرار الفرد على علاقة ما بينــه وبين الكون أصله وغايته وما فيه من ناس وحيوان ٠ فدعَامة الدين يجب أن تكون قوة داخلية نابعة من الذهن نؤمن بها ايماننا بالحقائق العلمية المجربة وليس يجوز أن تكون سلطة خارجية تأمرنا بالايمان فنؤمن فاذا لم نؤمن عوقبنا بالجلد أو الحبس أو القتل ٠

ثم يجب أن نذكر أن العقائد التى تأمرنا بها ســلطة خارجية وتطالبنا بممارستها لا يمكن أن تكون سوى قواعد ٠ والقاعدة جامدة جمود الحروف المؤلفة منها كلماتها ٠ ولكن حياة الانسان دائمــة التطور ٠ والتطور هو التحول بالانتقال من حال الى حال ٠ فمثل هذه العقائد اذن يجب أن تتناقض مع الحياة وتتعــارض مع رقى الانسان ٠ الا اذا اتيح لها علماء يقومون بتفسيرها بحيث لا تناقض روح الزمن ٠ أما اذا لم يتح ذلك فانه يجب عندئذ اما أن تجمد الأمة وتموت واما أن تخلع هذه العقائد عنها ٠ ونحن فى هذا الفصــل سنعرض لاثنين حــاول كل منهمــا أن يجعل الدين شريعة جامدة ٠

وأول هذين الاثنين هو كالفن الذى ولد سنة ١٥٠٩ ومات سنة ١٥٦٤ ٠

وهو رجل فرنسى اعتنق البروتستانتية وهو فى سن الشباب وتحمس لها ودرس القانون وعاش فى باريس ثم رحل الى بازل حيث وضع كتابا عن المسيحية ٠ ثم انتقل الى جنيف ولكن أهالى هذه البلدة لم يطيقوا حماسته وطردوه فذهب الى ستراسبورج ولكنه لم يبق طويلا بعيدا عن جنيف فان حزنه قوى وتكاثر واستدعاه الى المدينة ٠ وكانت الدعوة من البلدية ومن الكهنة ومن الأهالى فلم ير كالفن بدا من الاستجابة لدعوتهم ٠ فعاد الى جنيف وشرع فى برنامج عجيب ٠

انما يجب أن نعرف أنه فى جميع أحكامه المخطئة كان مجتهدا اجتهاد الغزالى كلاهما ينوى فى قلبه الاخلاص ٠ وانما الخطأ جاء لكليهما من النظر الدينى لاحوال هذا العالم ٠ فقد عرفنا من نزاهة الغزالى أنه ترك منصبه فى المدرسة النظامية وترك عائلته ونسك نحو عشر سنوات والآن يجب أن تعرف من نزاهة كالفن أنه عندما مرض بالمرض الأخير الذى مات فيه رفض أن يقبل مرتبه لأن المرض منعه من أن يخدم به حتى يستحقه ٠ وعندما مات سنة ١٥٦٤ قال فيه البابا بيوس الرابع : « ان قوة هذا الهرطيق ترجع الى أنه لم يكن يبالى بالمال » ٠

ويجب أن نذكر أن عصر كالفن كان عصر الحدة الدينية ٠ ففى السنة التى خرج فيها كالفن من أحضان الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٣٤ أسس اغناطيوس لويولا فرقة اليسوعيين للدفاع عن المذهب القديم ٠ ورأى العالم الأوربى أن عصر المجانة قد مضى وان الظفر سيكتب للجاد فى دعوته ٠ فما هو ان هدأ كالفن فى جنيف حتى شرع يكتب للناس شريعتهم الجديدة ويفحصهم ويسائلهم عن المذهب الجديد يجمعهم كل عشرة معا ويأخذ فى تعيين ما يجب وما لا يجوز

ان يؤمنوا به • وبعد ذلك اقنع مجلس المدينة بطرد جميع من يؤمن بالكاثوليكية ثم الف مجلسا يشبه محـكمة التفتيش يفتش ضـــمائر الناس فمن رؤى أنه يعتقد من العقائد ما يغـــاير مذهب أهل جنيف طلب منه أن يجحد عقائده فاذا رفض اخـــرج من المدينة ومنع من الاقامة فيها • ولكن الهرطقة لم تكن العلة الوحيدة للعقاب • فان كلمة واحدة ينطق بها على سبيل الفكاهة رجل يحضر عرسا وقت كتابة العقد أمام الكاهن كانت تكفى لعقابه بالحبس • واليك شـــيئا من المحرمات التى حرمها كالفن على أهـــل جنيف : الرقص والغنـاء واللعب بالكوتشينه والمقامرة ولبس الحرير •

وهذا كله لأن كالفن اراد أن يجعل المسيحية شريعة مدنيـــة جامدة • ولكن جنايته التى تضعه فى صف السفاحين هى قتـــله لسرفيتوس • فقـد كان هذا الرجل أسبانيا تربى في فرنسـا ودرس الطب والفلك والاغريقية والعبـــرية وقاده سوء بخـتـــه أن يدرس اللاهوت • واهتدى فى أبحاثه الطبية الى معرفة الدورة الدموية • ثم ذهب فى أبحاثه الدينية الى أن عقيدة التثليث عند المسيحيين وهى أن الآب والابن والروح القدس اله واحد خطأ لا أصـــل لها وبلغ من سذاجته وسلامة نيتـه أن كتب الى كالفن خطـابا يرجـوه أن يأذن له بدخوله الى جنيف لكى يلتقى به ويتناقش معه فى موضوع التثليث •

ولكن كالفن لم يبعث اليه برد ولا بدعوة • وكان سرفيتوس فى ذلك الوقت فى ليون بفرنسا وعرف عنه انكاره للتثليث فقبضت عليه محكمة التفتيش وأودعته السجن ولكنه لعلة لا تعرف اسـتطاع أن يهرب • وذهب سرفيتوس الى جنيف ولكن لم يمض عليه يوم حتى قبض عليه وشرع فى محاكمته للهرطقة • ومضت على المحاكمة ٧٢ يوما قضى عليه فى نهايتها بالاحراق • وفى هذا الوقت عينه أرسلت محكمة التفتيش فى ليون الى جنيف تطلب سرفيتوس الهرطيق لـكى

يحرق فى ليون · ولكن كالفن رفض تسليمه وأراد أن يرى بعينه هذا الخصم العنيد يتقلى على الجمر ·

ودوى فى العالم عندئذ أن البروتستانتية لا تختلف عن الكاثوليكية بشىء وانها تفتش ضمائر الناس وتضطهد وتقتل وان محاكمها الدينية لا تمتاز من محاكم التفتيش ·

ولنودع الآن سرفيتوس وقاتله السافل المخلص كالفن ولننظر بمثال آخر كيف يكون الدين اذا صار شريعة جامدة ·

· · ·

لما انكسرت شوكه الكاثوليكية بظهور لوثر وخروجه على البابا صار الناس يتجراون على مساءلة أنفسهم وتفتيش ضمائرهم عن العقائد القديمة وصاروا يجتهدون ويعلنون آراءهم · وحوالى سنة ١٥٢٠ ظهر أحد الألمان وأخذ يدعو الناس الى وجوب تعميدهم مرة أخرى عندما يبلغون سن الشباب · لأن التعميد فى سن الطفولة كما هو المتبع بين النصارى لا يفيد الدخول فى النصرانية اذ ان الطفل لا يعقل العقائد · فاذا اردنا أن نؤمن حق الايمان بالمسيحية ينبغى أن نعيد تعميدنا فى الشباب · وكانت فرقته تسمى لذلك « المعيدين للتعميد » ·

وكان هؤلاء « المعيدون » يمتازون من سائر المسيحيين بالسير على حرف الانجيل يقولون بشيوعية المال وبالامتناع عن الحرب ونحو ذلك من الآراء المزعجة للدول والكنائس معا · وفى سنة ١٥٣٤ كثر هؤلاء « المعيدون » فى مدينة مونستر الألمانية فطردوا أسقف المدينة واستولوا على الحكومة وشرعوا ينفذون الانجيل والتوراة ويمضون احكامهما فى الناس فجعلوا الدين بذلك شريعة مدنية جامدة وافتتحوا للسكان الساكين عهد خراب لم يره العالم من قبل أو من بعد ·

وكان أحمسهم فى مذهب « الاعادة » رجل خياط يدعى يوحنا كان يعمل للخياطة فى النهار فاذا كان المساء انتفض نبيا ينطق بكلمات الانجيل والتوراة كأنهما لم ينزلا الا لأجله وحده ولا يفهمهما أحد غيره . فلما شرع المعيدون فى تقلد الأحكام تناولوا كنائس الكاثوليك فهدموها وجعلوا اديار الرهبان مساكن للفقراء ثم جمعوا جميع ما فى البلدة من الكتب عدا الانجيل والتوراة فاحرقوها كلها ثم نظروا حولهم فاذا بالمدينة بعض جماعات لا تزال تصر على الايمان بغير ما يؤمن به هؤلاء المعيدون . فلم يكن بأسرع من أن قبضوا عليهم وأغرقوهم أو قطعوا رؤوسهم .

فلما زال من المدينة رجس الهراطقة ونجاسة الكتب ولم يبق بها سوى المعيدين الاطهار والانجيل والتوراة تفكر يوحنا الخياط فالتمع فى ذهنه خاطر جليل وهو أن يحكم مونستر كما كان سليمان الحكيم يحكم مدينة أورشليم . فذهب الى سوق المدينة وأقام عرشا ثم تبوأه . ثم قسم سكان المدينة اثنى عشر سبطا كما كانت أسباط اسرائيل . ثم تذكر أن سليمان الحكيم لم يقتصر على امرأة واحدة فاضاف زوجات أخرى على زوجته . وكان لسوء حظه حسن الذاكرة جيد الفهم للتوراة فقادته ذاكرته الحسنة وفهمه الجيد الى أنه كان لسليمان الحكيم سرارى أخرى غير زوجاته . فاتخذ الملك الخياط سرارى أخرى غير زوجاته .

وكانت الحكومة السابقة المطرودة قد جمعت جيشا وحاصرت المدينة ومنعت عن مونستر التموين مما حولها فعم القحط . ولكن الملك لم يكن يبالى بذلك فكان يقعد كل يوم على عرشه فى السوق ويأخذ من الغنى ويعطى المحتاج ويمتشق الحسام لقتل المخالفين . ولما رأى القحط يزداد أمر الأهالى بزراعة الشوارع . ولكن المحاصرين لم يمهلوا السكان الى وقت الحصاد فانهم فتحوا المدينة بعد حصارها بخمسة اشهر وقبضوا على الخياط ووضعوه فى قفص وطافوا به ثم قتلوه اشنع قتلة .

كل هذا حدث سـنة ١٥٣٤ ٠

والآن يجب الا تضحك أيها القارىء فان هذه الدرامة نفسـها مثلت فى أم درمان منذ أربعين سنة فقط وكان بطلها المهدى ٠ فانه أحرق جميع الكتب ما عدا القرآن وامتاز من يوحنا الخياط بأن عدد قتلاه وقتلى المهديين بهديه قد أربى على مائة الف مصرى وسودانى أما الذين هلكوا بغير سلاحه فقد أربى على الملايين ٠

قتال الكاثوليك والبروتستانت

عندما نقرأ الآن الصحف نجد معظم الأخبار خاصة باضرابات العمال والتعاون والنقابات والبولشفية والاشتراكية ونحو ذلك وكلها تدل على أن المسائل الاقتصادية هى الشغل الشاغل لاذهان السياسة الآن . ولكن الحال كانت تختلف عن ذلك فى القــــرنين السادس والسابع عشر فان الذى كان يشــــغل الاذهان فى ذلك الوقت هو المسائل الدينية وكانت مع ذلك تشغلها بحدة وشدة . فاننا نســــمع الآن عن دسائس صحيحة أو مزعومة يدسها البولشفيون للانجليــز وعن هياج للعمال يقتل فيه واحد أو اثنان . ولكن فى ذلك الوقت كانت تنشب الحروب فيقتل فيها الآلاف وتخرب البلاد فيهلك سكانها بالملايين وكل ذلك من أجــل الدين ومن الكـــراهية المتبــادلة بين الكاثوليك والبروتستانت .

ولكن قبل أن نذكر الحروب المذهبية والتنافس الحــزبى بين الكاثوليك والبروتســـتانت يجب أن نشير الى ما كان من نتـــائج التنافس السلمى بينهما . فان كل طائفة صارت تغار على أبنائها وتخشى من تسرب العقائد الفاسدة الى نفوسهم فكانت لذلك تؤسس المدارس لتلقين الصغار بالعقيـــدة الصـــحيحة . وظهـــرت فرقة اليسوعيين سنة ١٥٣٤ لهذا الغـــرض فانها عنـــدما رأت نشــاط البروتستانت خشيت أن تتضعضع الكنيسة القديمة أمامهم. فتأسست لهذا السبب المدارس اليسوعية وكانت سندا عظيما استندت اليــه الكاثوليكية . وحسب القارىء أن يرى الآن نشاط اليسوعيين فى

مصر وسوريا ليقيس عليه نشاطهم فى القـــــرن السادس عشر فى أوربا · وحركة انشاء المدارس الحديثة ترجع الى ذلك العهد ·

ثم يجب ألا ننسى أيضا أن انشاء المدارس قد روج الطبـــاعة لأن المطابع أصبحت تجد فى الكتب المدرسية مادة تعيش منهـا · وأيضا هنا يجب أن نضرب المثل بنشاط المدارس اليسوعية عندنا فى طبع الكتب ·

هذه هى بركات المنافسة الدينية السلمية · أما نكباتها وكوارثها ففى الاضطهادات والمجازر والحروب · ولكن يجب أن ننبه القارىء إلى أنه كانت هناك اعتبارات أخرى فى الحروب الدينية غير الدين·

وأول هذه الكوارث ارسال فيليب ملك أسبانيا جيشـــا على هولندا لاخمـــاد الحركة البروتستانتية · فقد قام فى رأس فيليب أنه حامى ذمار الكاثوليك فبينما كانت محكمة التفتيش فى أسبانيا تطارد المغاربة كانت جيوشه تحرق المدن وتقتل الناس فى هولندا · وكـان ذلك سنة ١٥٧٢ وهى السنة التى ذبح فيها نحو ٢٥٠٠٠ بروتستانتى فى فرنسا فى عيد سان بارتلوميه ·

وانهزم فيليب فى هولنـدا · فجهـز أسطولا لمقاتلة الانجليـز والهولنديين معا سنة ١٥٨٨ · وهنا يتضح للقارىء ان الدين كـان تعلة وتكأة يتكىء عليها فقط ولكن القصـد هـ والفتح · وقد انهـزم الأسطول الأسبانى وأخذت هولندا وانجلترا تستوليان على ممتلكات أسبانيا فى آسـيا ·

ولكن أعظم الحروب الدينية بعد الحروب الصليبية هى حـرب السنين الثلاثين التى بدأت سنة ١٦١٨ وانتهت بخـراب ألمانيا تقريبا سنة ١٦٤٨ · ففى هذه الحرب حاول الامبراطور فرديناند الثـــانى وهو من أسرة هابسبرج أن يمحو البروتستانتية من ألمانيا فأرسـل

عليها جيوشه تخرب وتدمر حتى يقال ان خمسة أسداس القـــرى والمدن الألمانية خربت وان الأهالى الذين كانوا ١٨ مليون نفس نزلوا الى أربعـــة ملايين ٠

ودخل جوستافوس أدولفس الاسوجى فدحر جيوش الامبراطور ثم استحالت هذه الحرب الدينية الى حـــرب سياسية صريحـــة ٠ فانضمت فرنسا الكاثوليكية الى الاسوجيين البروتستانت لقتـــال الامبراطور ٠ ودخلت دنماركا البروتستانتية الحرب ولكن لا لقتـال الكاثوليك وانما لقتال الاسوجيين البروتستانت وكانت نتيجـــة هذا الخراب العظيم الذى نال أوربا أن الناس عرفوا قيمة التسامح لا حبا فيه بل خوفا من عواقب التعصب ٠

جاليـــل

ولد جاليل سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢ . وحياته كفـــاح متصل مع القدماء الذين أخذ على عاتقه هدمهم ومع الكهنة الذين أوشكوا أن يجعلوا خاتمة حياته مثل خاتمة حيـــاة برونو . ولكنه توقى هذه الخاتمة بأن رضى بان ينكر ما قاله .

كان جاليل ايطاليا نشأ فى أسرة شريفة وتربى التربية العالية التى كان يحصل عليها أبناء الاشراف فى ايطـاليا . وقد أبدى من الذكاء والميل الى الدرس ما جعله أستاذا فى جامعات ايطاليا فى الرياضة والميكانيكيات . وحدث فى سنة ١٦٠٩ أنه سمع بأن أحـد البلجيكيين قد اخترع زجاجة اذا نظر من خلالها جعلت الشىء البعيد قريبا فاكب على درس هذا الاختراع واخترع التلســكوب وأخذ فى درس الفلك . واخترع جاليل شيئين آخرين أيضا كان لهما أكبر الأثر فى النهضة العلمية وهما الميكرسكوب والترمومتر . وربما لم يكن لهذه المخترعات فى نظر الكهنة من القيمة فى زمنـــه مقدار ما كان لتخطئته لارسطوطاليس فى زعمه بأن الأجســـام الثقيلة أسرع فى السقوط من الأجسام الخفيفة . فقد كذب جاليل هذا الزعم واثبته بالتجربة بأن ألقى جسمين أحدهما خفيف والآخر ثقيل من قمة برج بيزا فوقع الاثنان فى وقت واحد على الأرض . واستنتج جاليـــل أن سرعة السقوط انما تتوقف على بعد المسافة لا على ثقل الجسم . وكذب ارسطوطاليس أيضا فى زعمه بأن الأرض مركز الكون . وقد كان لارسطوطاليس من الحرمة فى الكنيسة ما يكاد يشبه حـــرمة الانجيـل .

ونزع جاليل نزعة علمية قائمة على التجربة فاستعمل تلسكوبه الجديد فى كشف السماء فعرف بذلك من النجوم نحو عشرة أضعاف ما كان معروفا منها بالعين المجردة · وأظهره تلسكوبه أيضا علـى القمر فأخذ يرصده ووجد أن وجهه « يشبه جدا سطح الأرض » فيه السهل والجبل · واكتشف أقمارا لجوبتر ثم استنتج أن هذا الكوكب يشبه الأرض · ووقفه تلسكوبه أيضا على بقع الشمس التى لا نزال نحن حائرين فى ماهيتها · وكانت كل هذه الأبحاث تقوده الى ما يقوله الآن علماء الفلك وهو أن الكواكب والقمـــر قد تكون مأهولة بالناس مثل الأرض · وهنا بدأ الكفاح بينه وبين الكهنة ·

وذلك أن الكتب المقـــدسة قـد جعلت الأرض مركزا للخليقة ووجدت من أرسطوطاليس تأييدا لهذا القول فأكبرت تعاليمه فى هذه الناحية وعولت عليها · ولكن جاليل وجد أن هناك من الكواكب ماهو أكبر من الأرض وانها نشأت هنا يجوز أن تكون قد نشأت هناك ·

وبلغ محكمة التفتيش فى ايطاليا هذه الهرطقة الجديدة سـنة ١٦١٦ فكتبت الى الكردينال بلارمين تأمره « ان ينهى جاليل عن هذه الآراء وفى حـالة رفضـــه يؤمر بالكف عن تعـــليم هـــذه الآراء أو الدفاع عنها أو حتى البحث فيها · وفى حالة مخالفته يسجن »·

وسكت جاليل · فان شبح النار التى أوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريبا ولم يكن جاليل يستمرىء نار الاستشهاد · فلمـا كانت سنة ١٦٣٠ ألف كتابا عن الفلك وذهب الى البابا يستأذنه فى نشره وكان موضوع الكتاب المهم هـــو تعليل حركة المد والجـــزر بازدواج حركة الأرض أى بدورتها حول نفسها وأيضا بدورتها حول الشمس · فأذن له البابا بنشر الكتاب بعد أن اشترط عليه جملة شروط كان أهمها أن يكتب فى ختام الكتاب هذه العبارة : « الله قادر على كل شىء · وكل شىء ممكن لديه · وعلى ذلك فليس يمكن أن يقال

ان المد والجزر برهان ضرورى للحركة المزدوجة للأرض بدون تحديد قدرته على كل شيء » ٠

وقبل جاليل هذه الشروط ونشر الكتاب سنة ١٦٣٢ ٠ ولـكن فى السنة عينها هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب حتى مع وجود هذه الخاتمة التى يكذب فيها جاليل نفسه ٠ وانعقدت محكمة التفتيش سنة ١٦٣٣ وحكمت عليه بالسـجن ثلاث سـنوات وان يتلو المزامير السبعة مرة كل أسبوع وان ينكر كل ما قال ٠

أما من حيث الانكار فقد كان جاليل سريع الى انكار ما يطلب منه لأنه كان يعرف انه بعد ايراد الأدلة القوية على صحة نظريته ليس من المهم أن ينكـر كل ما يطلب منـــه ٠ لأن الأدلة هى سبيل الاقتناع العلمى وهى كلها مثبتة بالكتاب ٠ فهو يتقى غضب الكنيسة باللفظ ولكن يعتمد على التدليل العلمى فى الاقناع ٠

نزعة الشـــك

القرن السابع عشر هو قرن الشك نشأ فيه طائفة من العلماء والفلاسفة ينكرون طرق القدماء ويقولون بالتجربة ويدعون الى الشك فى الحقائق المزعومة حتى تجرب والا فلا يجوز الايمان بها ٠ وأبطال هذه النزعة هم :

بيــكون	الذى ولد سنة ١٥٦١ ومات سنة ١٦٢٥ ٠						
وديكارت	«	«	«	١٥٩٦	«	«	١٦٥٠ ٠
وسبينوزا	«	«	«	١٦٣٢	«	«	١٦٧٧ ٠
وهوبز	«	«	«	١٥٨٨	«	«	١٦٧٩ ٠
ولوك	«	«	«	١٦٣٢	«	«	١٧٠٤ ٠

وكان واحد من هؤلاء جدير بفصل قائم برأسه فى كتاب خاص بحرية الفكر ٠ فقد عملوا كلهم لحرية الفــكر من التقــاليد ومن السلطة ٠ ولكننا سنقنع هنا بالاشارة المختصرة الى كل منهم وما يمتاز به من خدمة الحرية ٠

وأول هؤلاء هو فرانسيس بيكون وهو رجل مثل سميه القديم روجر ببكون انجليزى يقول بوجوب التجربة وعدم الاعتماد على شيء سواها من كتب القدماء ٠ ووضع كتابا سنة ١٦٢٠ أوضح فيه طريقته الجديدة ٠ ومما قال فيها : « هناك من أسباب ما يرجينا

بأن نجد في بطن الطبيعة من الأسرار الكثيرة ما ليس له علاقة او مشابهة بما نعرفه مما هو بعيد البعد كله عن خيـالنا ومما لم يعرف بعد » ·

وفي سنة ١٦٢٧ وضع طوبى تخيل فيها أمثل هيئة بشرية تعيش وغايتها الأصيلة الاكتشاف والاختراع ·

ولم يكن بيكون ينزع الى الشك في القدماء فقط وانما كان ينكر كل ما قالوه حتى تؤيده التجربة · وبينما كان علماء القرون الوسطى يقضون أعمارهم في درس القدماء والجدل المنطقي الذي يحوم ويدور حول الألفاظ والفروض كان بيكون يفكر في المستقبل ويضع الطرق التي يجب اتباعها لكي تتقدم العلوم وذلك بأن نذهب الى الطبيعة رأسا ونخطب أسرارها غير مقيدين باية سلطة سوى سلطة التجربة التي تميز الفاسد من الصالح ·

ويقابل بيكون في انجلترا ديكارت في فرنسا ومن أسـماء مؤلفاته تعرف الروح الجديدة التي أخذت تتفشى في عصره وهي روح الشك · فله كتاب يدعى « قواعد لهداية العقل » وآخر يدعى « بحث في الطريقة » · وآخر يدعى « مبادىء الفلسفة » ·

ويبنى ديكارت فلسفته على الشك في كل شيء ولا يؤمن ايمانا يقينيا بشيء سوى بالفكر ومن كلماته المأثورة : « انى أفـكر فانا لذلك كائن » وهو يشترط لاقامة بناء الفلسفة الجديدة هذه القواعد الأربع :

١ ـ لا يصح قبول أى شيء على انه حق ما لم تعرف ماهيته بغاية الوضوح حتى لا يمكن الشك فيه ·

٢ ـ تقسيم المسائل الصعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ليسهل ادراكها ·

٣ ـ يبدأ فى الدرس من السهل البسيط الى الصعب المركب ٠

٤ ـ يستوعب البحث ويستقصى ويعمم النظر حتى نتأكد بأننا لم ننس شيئا ٠

وهذا الكلام يبدو لنا هينا لينا ولكنه كان فى القرن السابع عشر نارا وكبريتا على رجـال الدين ٠ وكان من يتهم باعتقـاد الديكارتية يعد كافرا لا غش فيه ولم يكن يقل عمن كانوا يتهمون بالداروينية فى القرن التاسع عشر ٠ وقد أمضى ديكارت جـزءا كبيرا من حياته فى هولندا ولا تعرف علة ذلك وربما كان استحسانه لها يرجع الى كثرة مطابعها وسهولة وسائل النشر منها ٠

على أن اقامته بهولندا وان لم يتعلم لغتها ولا وضع كتابا فيها الا بلغته الأصلية أى الفرنسية قد أفادت فان أكبر حوارييه كان من يهود هولندا ٠ وكان يدعى باروخ سبينوزا ٠

ففى أحد الأيام وجدت طائفة اليهود المقيمة بأمستردام أن واحدا من أبنائها يجاهر بايمانه بديكارت وبأنه لا يؤمن بأشياء فى التوراة والتلمود ٠ ولم يستطع ربانية الطائفة أن يعاقبوه على ذلك لأنهم كانوا قد ارتكبوا جرما شنيعا منذ زمن قليل لم يكن قد نسيه بعد أهالى أمستردام ٠ فلم يكونوا يرغبون فى اثارة هذه الذكرى ٠ فقد حدث أن أحد اليهود البرتغاليين رحل الى هولندا وأبى كبرياؤه أن يخضع للربانية وأن يواظب على الحضور للكنيس فجلده الربانية وأهانه رجال الطائفة ٠ وفعلت هـذه الاهانة فى نفســه أفاعليها فانتحر ٠

فلما وجد الربانية أن سبينوزا قد خـرج على آباء التوراة والتلمود لم يلجأوا الى العنف فى اسكاته خشية أن يتكرر حادث هذا اليهودى البرتغالى ويتسامح أهالى المدينـة بمـا يفعـلونه

بأحرارهم • فتلطفوا وعرضوا عليه مبلغا من المال ثمنا لسكوته • فأبى • وقنع الربانية بان لعنوه لعنة أبدية فى الكنيس وخلعوه من الطائفة • وحاول أحد المتعصبين أن يغتاله فأخفق • وبقى سبينوزا بأمستردام لا يبالى بالتوراة ولا بخناجر الغادرين من أبناء طائفته •

وأخيرا لجأ الربانية الى حكومة أمستردام لكى تعاقب سبينوزا لأنه لا يكفر باليهودية فقط بل بكل شىء بالله وباليوم الآخر ويعلن شكوكه فى أشياء مقدسة يؤمن بها النصارى واليهود معا • وانعقدت محكمة نصرانية لمحاكمته على هذه التهمة العمومية ولكنها برأته فى النهاية وقنعت بأن يغادر المدينة مدة شهرين حتى تهدأ العاصفة•

وغادر سبينوزا امستردام وعرضت عليه مناصب للتعليم رفض قبولها لئلا يضطر الى تقييد حريته وارتضى الفقر مع الدرس واقام فى الهاى يصنع العدسات ويبيعها •

ومن الصعب أن نلخص فى كلمات فلسفة سبينوزا التى وضعها فى مجلدات •

ولكن يجب أن نقول أنها لم تكن من نوع ذلك البحر الطامى الذى ناضت به كتب الجدل اللفظى العقيم حتى كان مثل عمر الخيام يؤثر الخمر عليها ويرى أن السكر الحادث من هذه خير من السخف الذى تقول به تلك المجلدات الضخمة •

كان سبينوزا يؤمن بأن حدود الأديان اضيق من ان تسع الفكر الانسانى وأن هذا الكون المؤلف من ملايين النجوم بكواكبها هو وطن الانسان الحقيقى • وأن الله متحد بهذا الكون وهو فكرته• وأن حرية المرء لا تتحقق الا بالتخلص من شهواته واتحاده بالله •

وفى هذا الوقت عاش هوبز · وهو معلم انجليزى كان يعلم أبناء الأغنياءويقضى معهم الأشهر العديدة فى أوربا لأنه كان يجعل الرحلة من شروط التربية · وعرف فى رحلاته هذه جاليل وديكارت وبيكون ونزع نزعتهم كلهم وان كانت العلوم الرياضية تغلب عليه ثم أوفى عليهم بدرسه الفلسفة السياسية ورأى من اضطهاد طائفة « الطهريين » فى انجلترا ما ألجأه الى أن ينفى نفسه فى أوربا احدى عشرة سنة · فقد كان وضع كتابا فى الدفاع عن الملوكية وكانت الملوكية فى انجلترا فى أسوأ حال اذ كان « الطهريون » قد قتلوا الملك شارل الولأ · وليس يمكن أن نقول أن هوبز دعا الى الحرية الفكرية بل هو دعا بعكس ذلك الى الخضوع لحكم ملك مستبد · وانما أبحاثه فى أصل الهيئة الاجتماعية وأن الانسان كان يعيش فى فوضى وتوحش ثم اتفق الناس على أن يسلموا السلطة لواحد أو أكثر من واحد لكى يحكمهم ، نقول أن هذه الأبحاث فتحت بابا جديدا لتحرير الفكر بالبحث فى أصل الحكومات وغاياتها · وقد قبل البلاط الانجليزى هذه الآراء وكافاه عليها بمعاش سنوى مدى حياته · ولكن الكنيسة الانجليزية حكمت بتكفيره لآرائه الدينية واتهمته بالالحاد ·

وثم رجل آخر ولد فى عام واحد مع سبينوزا ولكنه أوفى عليه فى العمر بسبع وعشرين سنة حتى عاش أربع سنوات من من القرن الثامن عشر · وهذا الرجل هو لوك ·

ولد لوك فى انجلترا ووقع له فى أحد الأيام كتاب، هوبز فى الدفاع عن الملوكية فقرأه · وكثيرا ما تهدم الكتب الموضوعة فى الدفاع عن بعض المبادىء هذه المبادىء نفسها لأنها تفتح أبوابا لم يلجها أحد من قبل · وقد يلجها القارىء فتنفتح عينه لأشياء لم تكن مفتوحة لها من قبل ولا يغنى عندئذ دفاع المؤلف · فقد تجد

فلاحا سانجا يؤمن بالله ايمانا صادقا يسلم فيه بربوبيته وقدرته وقد تشككه فى دينه اذا أنت حاولت أن تثبت له وجود الله بطرق المنطق والجدل · وكذلك كانت الحال فى كتاب هوبز فى الدفاع عن الملوكية فان القارىء يجد أن هذا الدفاع يجرحها أكثر مما يؤيدها ·

والعادة أن من ينزع الى الجراءة فى نقد الحكومة لا يمكنه أن يتخلى عن هذه النزعة فى نقد الدين أو الهيئة الاجتماعية أو الاخلاق أو غير ذلك · وقد قرأ لوك وهو طالب فى أكسفورد كتاب هوبز عن الملوكية ورأى كيف أن الطهريين قد قتلوا الملك شارل الأول سنة ١٦٤٩ متساءل هو : اذا كان للناس الحق فى أن يخلعوا ملوكهم المستبدين ويقتلوهم ويمحوا استبدادهم فلم يرضون باستبداد الكهنة ولم لا يختار الناس الأديان التى تقرهم ضمائرهم عليها ؟

ولكن لوك وجد أن الجو لا يلائم هذه النزعة وأن رجال الدين يتهامسون بأنه ملحد · فرحل الى أمستردام ووضع هناك « خطابات عن التسامح » قال فيها أنه لا حق للحكومة بأن تدخل فى ضمير المرء وتملى عليه دينه وأنها انما أقيمت برضى الناس واتفاقهم لحماية الأفراد وأمنهم · وكما أنه لا يجوز لها أن تعين ما يأكله الناس وما يشربه كذلك لا يجوز لها أن تعين لهم المذهب الذى يؤمنون به · وقد كانت أوربا قد تفشت فيها المذاهب · فقال لوك ينتقد اشتغال الحكومات بالأديان ووجوب تركها الناس احرارا :

« اذا كان للحكومة الحق بأن تملى على الناس كل ما يختص بسعادة أرواحهم المستقبلة فان نصف الناس قد حكم عليه منذ الآن بالهلاك الأبدى لأنه لما كان من المستحيل أن يكون المذهبان صحيحين فمن المعقول أن جميع من ولدوا فى ناحية ما سيذهبون

الى السماء فى حين أن من ولدوا فى الناحية الأخرى قد قضى عليهم بالذهاب الى جهنم وبهذه الطريقة يتقرر مصير الانسان ونجـاته حسب البقعة الجغرافية التى اتفق ميلاده فيها » ٠

ومنذ ذلك الوقت أخذت الدعوة الى التسامح تزداد وتقوى ويكون لها دعاة يجاهرون مثل فولتير وتوم بين يستطيعون انـكار التقاليد مجاهرين بذلك لا يخشون بطش الحكومات ولا الكهنة ٠

جلالة الملك فولتير

ولد سنة ١٦٩٤ ومات سنة ١٧٧٨

يحكى عن فولتير أنه قال مرة : « وما على اذا لم يكن لى صولجان ؟ أليس لى قلم ؟ »

وقد حق لفولتير أن يفاخر بقلمه كما يفاخر الملك بصولجانه لأنه اذا كان للملوك ملك فلفولتير ملكوت · واذا كان لكل ملك رعية مؤلفة من جميع الطبقات فلفولتير رعية راقية مؤلفة من رجال الذهن فى جميع أنحاء العالم · واذا كانت الملوك تتفاضل بالأثر النافع الذى يتركه حكمها فى رعاياها فأى ملك استطاع أن يؤثر فى اذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيه فولتير ؟

أجل أن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المذهب وتعقد على الرأس الاكليل المرصع · تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التى يشرف صاحبها على العالم ماضيه ومستقبله يرسم له مثله العليا ويوجه خطاه نحوها · فقاد العالم الحقيقيون هم فلاسفته وعلماؤه وأدباؤه الذين يرسلون صوتهم الينا عبر القرون فنسمع لهم ونأتمر بأمرهم ·

وفولتير واحد من هؤلاء الملوك تناول صولجانه فألف به نحو سبعين كتابا كلها فى الدفاع عن رعيته أى عن رجال الذهن والمفكرين · ولقد كتب فى التاريخ ولكنه لم يبرز على أحد من

المؤرخين وكتب فى الادب ولكن بين الأدباء من يبـذه · ولكن له فضلا واحدا وهو انه أرصد قلمه وماله وقوة جسمه الضعيف وجاهه وكل ما يملك فى العالم الى اثبات حق كل انسان فى الحرية الفكرية والى مكافحة الظلمة والمتعصبين والأغبياء ·

ولعلك أيها القارىء قد سمعت عن كاتو ذلك الرومانى العنيد الذى قضى أكثر من خمسين سنة وهو يصبح ويمسى فيقول للرومانيين : « يجب أن تدمر قرطاجنة » حتى رأى بعينه تدمير قرطاجنة وزالت دولة الفينيقيين التى كانت تخيف رومية · فهذا فولتير قد فعـل فعله وقضى عمره وهو يصيح بالعالم الأوروبى عامة وبفرنسـا خاصة : « اسحقوا أهل الخزى » وأهل الخزى والعـار هم الذين يضطهدون الأحرار ·

والعجب فى فولتير هذا أنه حارب الكنيسة الكاثوليكية وهدم سلطانها على الأحرار وهو مؤمن شديد الايمان بالله · بل لعل ذلك لم يكن عجيبا · ولم يكن ايمانه ايمانا فلسفيا بل كان ايمـان الهوى والعاطفة · حتى أنه لما قيل له أن جبال الألب كانت فى تاريخها الغابر تحت الماء بدليل أصداف المحار المتحجرة فيها رفض أن يصدق هذا القول لأنه ينافى وجود عناية الهية ترعى خلائق اليابسة وخلائق الماء · وحدث فى حياته زلزال لشبونة ودمرت المدينة فتزعزع ايمانه قليلا ولكن هواه تغلب عليه وعادت اليه عقيـدته فى الله · وانما كان فولتير يكفر بالخرافات التى ترويهـا الكتب المقدسة وكان اكباره لله يدعوه الى الكفر بهذه الكتب ·

وكانت أوربا الشمالية فى زمنه قد تحررت من قيود التعصب وخفت فيها وطأة الاضطهاد أو زالت · وزار فولتير انجلترا فرأى فيها من التسامح غير ما يرى فى فرنسـا وزار أيضا المانيا واختلط بفردريك الثانى فرأى فيـه ملكا متسامحا لا يبالى أى دين يؤمن به

رعلياء ما داموا يدفعون الضرائب ويلتحقون بالجيش · فعزم على محو التعصب من فرنسا ·

وكان برنامجه مزدوجا وهو أن يؤلف الكتب فى مكافحة التعصب وأن يهيىء وسائل الدفاع للمنكوبين الذين يحاكمون من أجل عقائدهم · ونحن هنا سنبدأ بالجزء الأول من هذا البرنامج وسنقصر مهمتنا فيه على نقل أقوال فولتير · قال فى كتابه « قبر التعصب » :

« ان من يتلقن دينه بلا فحص يكون كالثور يتقبل النير بلا معارضة » ·

ويقول فى خطاب لولى عهد بروسيا :

« ان الدجاجلة هم وحدهم الذين يجزمون ويقطعون · فاننا لا نعرف شيئا عن المبادىء الأولى فمن الشطط أن نعين ما هيئة الله أو الملائكة أو العقول وان نعرف بدقة علة خلق الله للعالم فى حين أننا لا نعرف لماذا نرفع ذراعنا كلما شئنا · وليس الشك مما يرتاح له المرء ولكن اليقين مدعاة الضحك والسخرية » ·

ويقول فى كتابه « التسامح » :

« لا يحتاج المرء الى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكى يبرهن على لزوم التسامح بين المسيحيين بل بين جميع الناس على السواء · وقد تسألنى الآن ! هل يجب على أن اعتبر التركى أو الصينى أو اليهودى أخا لى ؟ أقول : أجل · ألسنا كلنا أبناء أب واحد وخلائق رب واحد ؟

« وقد تقول : هؤلاء الناس يحتقروننا ويعتقدون أننا وثنيون أقول : اذا كان الأمر كذلك فانى أخطئهم وأظن أنى أدهش المسلم أو البوذى واكسر من شرة عناده اذا أنا قلت لهما ما يلى :

« هذه الكرة التى نعيش عليها ليست سوى نقطة تسير فى الفضاء مثل سائر الكرات العديدة الأخرى ··· والانسان الذى يبلغ طوله خمس أقدام انما هو شيء حقير فى هذا الكون · وهناك فى جنوب أفريقيا أو جنوب آسيا انسان لا يكاد يرى يقف ويقول للناس : اسمعوا ان خالق هذه العوالم قد أوحى الى فعلى هذه الأرض نحو ٩٠٠ نملة صغيرة مثلى ولكن ليس عزيز عند الله سوى جحرى أما سائر الاجحار فالله يكرهها ولن يكون بينها سعيدا سوى جحرى

« وعندئذ يسألوننى من هو هذا الابله الذى نطق بهذا الهراء فأقول لهم انهم هم أنفسهم يقولون ذلك · ثم أهدىء غضبهم » ·

ويقول أيضا :

« لكى تدعى حكومة ما الحق فى أن تعاقب الناس على اغلاطهم يجب أن تتخذ هذه الأغلاط هيئة الجرائم · وهى لن تكون جرائم حتى تحدث القلاقل بين الهيئة الاجتماعية وذلك بأن تؤدى الى التعصب · وعلى ذلك يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب لكى يستحقوا التسامح » ·

وأيضا : « اذا أنت أصررت على أن الكفر بالدين السائد جريمة فانك بذلك تؤثم المسيحيين الأولين اباءك وتبرر أولئك الذين تنقم منهم اضطهادهم لهم » ·

ولننظر الآن الى الجزء الآخر من برنامجه وهو الدفاع عن المنكوبين الذين نزل بهم اضطهاد رجال الدين والحكومات ·

ففى سنة ١٧٦١ حدث أنه كان يقيم فى مدينة تولوز رجل بروتستانتى يدعى كالاس له حانوت بالمدينة · وكانت تولوز مشهورة بتعصبها تحتفل بعيد مقتلة سان بارتلوميه كل عام · ومع

ذلك استوطنها كالاس هو وعائلته وكان فى جراءته هذه متهورا قد أفرط فى التفـــاؤل ٠

وحدث أن أحد أبنـــاء كالاس تمذهب بالكاثوليكية وأعلن الأب أمام جيرانه أنه لا يعـــارض أبناءه فى اختيار أى مذهب يؤمنــون به ٠ ثم بعد ذلك حدث حادث آخر أخطر من هذا ٠ وهو أنه كان لكالاس ابن آخر يدعى مرقس يبلغ الثامن والعشرين وكان يرغب فى دراسة القانون ولكن البروتستانت كانوا محرومين من هذه الميزة وكان هو بروتستانتيا متحمسا لمذهبه فلم يقدر على النزول عنه والتمذهب بالكاثوليكية كما فعل أخوه ٠ وأدى به هذا الصراع بين مصلحته وبين ضميره ان اختل توازنه الفكرى فصار يخرج منفردا ويسير فى الحقول ويتكلم عن الانتحار ويمتدحه ٠ وقد حفظ الأشعار التى يقولها هاملت عندما كان يمتدح الموت فكان ينشدها لنفسه ٠ وفى أحد الأيام تعشى مرقس وغادر المنزل ٠ فلم يسأله أحد من اخوته أو والديه الى أين يذهب لأنهم تعودوا منـــه الخـــروج والسير على انفراد بعد العشاء ٠ ولكن بعد ساعات وجد كالاس أن ابنه قد خنق نفسه بحبل معلق من سقف البـــاب ٠ وكان قد خلع ملابسه ووضعها قريبا منه وهى مرتبة مطبقة ٠

وكانت العادة أن المنتحر يحرم من صلاة الموتى ويجر على وجهه الى خارج المدينة كى تأكله الوحوش والجـــوارح ٠ وخشى كالاس هذه الفضيحة فوقف هو وأعضاء العائلة يتكلمون فى كيفية دفن الجثة بدون التعرض لهذا العار ٠ ولكن أحد الجيران شعر بالحركة وسمع رشاشا من الكلام يدل على الحادثة فابلغ الشرطة ٠

وقبض الشرطة على جميع أفراد العائلة وتفشت فى البلدة اشاعة مؤداها أن عائلة كالاس قد قتلت الشاب البرىء الطـــاهر مرقس لأنه أراد أن يدخل فى حظيرة الكاثوليكية ويفر من رجس

البروتستانتية الذى يعيش فيه أبواه واخوته · وأصبح مرقس شهيدا على الرغم منه وحملت جثته وبقيت فى قاعة المدينة العمومية ثلاثة أسابيع والناس يزورونها ويترحمون على هذا المسكين الذى ذهب ضحية ايمانه والكل مجمع أن الأب قد خنق الابن مع أن الأب كان عمره ٦٣ سنة وكان عمر الابن ٢٨ سنة ·

وبعد خمسة أشهر تألفت المحكمة لمحاكمة العائلة وحكمت على كالاس بالتعذيب ثم بتمزيقه على الدولاب · وأدخل غرفة التعذيب وعلق بمعصميه من سقف الغرفة حتى صار على ارتفاع متر من الأرض ثم جذب الى الأرض من رجليه حتى خرجت رجلاه وذراعاه من محاجرهما · وأنزل بعد ذلك ثم أجبر على أن يشرب مقدارا كبيرا جدا من الماء حتى صار جسمه ضعفى ما كان قبلا · كل ذلك وهو يسأل عن الجناية فينكرها · وأخيرا حمل الى مكان القتل فقطع الجلاد رجليه ويديه · وعندئذ جاءته أبالسة من بنى آدم يقال لهم قضاة يسألونه هل ارتكب الجناية فينكر · حتى ضج القضاة من عناده وأشاروا على الجلاد بخنقه فاستراح المسكين من شياطين الانس ·

وكانت أملاكه قد استصفيت وخرجت أرملته لا تجد القوت وأخذ أولاده فوزعوا على الاديار لكى ينشأوا كاثوليكيين وتزداد بذلك رعية البابا ·

وكان فولتير مقيما بجنيف فسمع بخبر هذه الكارثة التى نزلت باسرة كالاس · فاستقصى وتحرى فوجده صحيحا بكل فظاعته · فلم يعد يفكر فى شىء فى هذه الدنيا غير هذه الكارثة ·

رأى فولتير أن وقوع هذه الكارثة اعتداء على مملكته فقد كان أمينا على حرية الفكر يدافع عنها فى جميع أنحاء أوربا · فاخذ يكاتب جميع من لهم نفوذ فى فرنسا لاعادة المحاكمة · وحمل

الأرملة المولهة الى باريس حيث عين لها محاميا مشهورا وجمع الشهود من الجيران وأنفق من ماله بلا حساب وكاتب ملك انجلترا وامبراطورة روسيا واجبرهما على التبرع بشيء من نفقات هذه الدعوى · ثم التفت الى فرنسا فعبى الرأى العام وجند قلوب الأمة بكتاب جمع فيه الأدلة التى تبرهن على الظلم الذى وقع بهذه العائلة · ونشره غفلا من اسم المؤلف ·

وبعد تسعة أشهر وصوت فولتير تتجاوب أصداؤه القوية فى جميع أنحاء أوربا « اسحقوا أهل الخزى » رضيت الحكومة الفرنسية باعادة المحاكمة · ومضى عام آخر نطقت فى نهايته المحكمة ببراءة كالاس الذى قتله قضاة تولوز بعد أن أنزلوا بجسمه الضعيف صنوفا من العذاب · وفصل هؤلاء القضاة السفلة من مناصبهم وتضمن الحكم نصيحة خفيفة الملمس لأهل تولوز بان مثل هذا الحادث يجب ألا يتكرر · وبعد ذلك وهب الملك هذه العائلة التى أشقاها التعصب هبة صغيرة من المال ·

هذه قضيه واحدة من أكثر من عشر قضايا تطوع لها فولتير ودافع فيها بقلمه وماله عن المظلومين المضطهدين ومات وهو فى الرابعة والثمانين من عمره مهدود القوى قد اقعده المرض والزمه الفراش ومع ذلك كانت له قضية يدافع فيها عن شاب قد اتهم بتحطيم صليب وبحيازة المعجم الفلسفى وبانه لم يركع عند مرور موكب دينى · وكان الشاب قد أحرقته المحكمة وانتهت منه بعد أن قطعت لسانه بالحديد المحمى ثم قطعت ذراعه اليمنى ثم أحرقته هو والمعجم الفلسفى · وهو ١٠ المعجم من مؤلفات فولتير · ولكن فولتير نبش القضية وأخذ يعرض تفاصيلها قطعة بعد قطعة أمام الرأى العام الفرنسى حتى يقف الناس على هذا الظلم الصارخ الذى يوقعه الأغبياء بالاذكياء مستعينين فى ذلك بالقوانين والظلام ·

وهكذا انتهت حياة فولتير وهو فى ميدان المعمعة بعد ان أبلى أشرف بلاء فى سبيل الحرية الفكرية ·

وهذا الرجل المكافح المقاتل من أجل الحرية كان مع ذلك يندى قلبه بندى المروءة اذا احس بضعيف يتألم أو اذا مدت اليه يـد المعدم تطلب الصدقة · فقد ذكرت عنه وكيلة بيته انه غضب مرة من خادمة وأمر بطردها · ولهذا الغضب حكاية مضحكة تـدل على مزاجه الفرنسى وزهوه · فقد كان عنده عقاب نحيل قد بان عظمه فسمع فولتير الخادمة تقول انه يحسن بهذا العقاب أن يموت لان هزاله قد بلغ منه · وكان فولتير نفسه من حيث نحول الجسم وهزال الأعضاء مومياء مجففة · فوقعت اشارة الخادمة منه وظنها تلمح الى شخصه· فامر بطردها · ولكن وكيلة البيت رفضت واعتمدت فى ذلك على انه اذا سألها عن علة بقاء الخادمة فانها تقول انها طردتها ولكنها لما لم تجد عملا تعيش منه عادت اليهم · وعندئذ يفيض قلب فولتير بما طبع عليه من بر فيسكت لانه لا يطيق ان يسمع ان أحدا يقول انه لا يجد ما يقتات به ·

وحدث انه وقع على خيانة اثنين فى منزله ونزل كلاهما على الأرض يركعان له حتى يغفر لهما هذا الذنب وهما يرتجفان من العقاب فركع هو فى الحال على الأرض أمامهما وانهضهما وعيناه تفيضان بالدموع وهو يقول لهما الا يركعا الا لله وحده ·

أجل · انه بمثل هذا الرجل يتطور الناس ·

الثـورة الفرنسية

أخبر الناس بالثورات وأعرفهم بطبيعتها هـــم الروس ولذلك يجب أن نعرف الثورة هنا بقلم أحد كتاب الروس الذى يقول عن تجربة واختبار :

« الثورة هى قلب سريع يحدث فى ســنوات قليلة للمؤسسات التى امتدت جذورها فى التربة عدة قرون والتى يبدو لمن ينظر اليها أنها ثابتة لا تتزعزع حتى ان أشد المصلحين حماسة لا يكاد يجسر على مهاجمتها بالكتابة · وهى سقوط وتهدم يحدثان فى فترة صغيرة لجميع ما كان يعد الى ذلك الوقت أصلا لحيـاة الأمة الاجتمـاعية والاقتصادية والدينية والسياسية »

وهذا التعريف ينطبق على الثورة الفرنسية كل الانطباق وليس من شأننا هنا ان نذكر تاريخ الثورة وانما نحن نمس منها ما له علاقة بحرية الفكر التى هى موضوع هذا الكتاب · ولهـذه الثورة ارهاصات أنبأت عنها وكان يمكن الحكيم ان يتوقع الثورة منها لولا غشاوات الطمع والكسل والجهـل والحين التى كانت تحجز نـور الحقائق عن عيون الطبقة الحاكمة فى فرنسا ·

فقد قضى فولتير حياته وهو يهدم سلطان التعصب ويشنع على استبداد الحكومة وظلمها · وقضى روسو حياته وهـو يبـدى ويعيد فى نظرية واحدة وهى ان طبيعة الانسان طيبة وانما أفسدتها الحكومات والشرائع · وكان مونتسكيو فى « روح الشرائع » يدعو

الى اصطناع الدستور الانجليزى بدلا من الأنظمة الفرنسية البالية· وكان رجال « الموسوعة » لا يفتأون يذكرون فى كل حرف من حروف المعجم أساليب الظلم التى تنزل بالناس من أشرافهم وأمرائهم كما يذكرون الأساطير الأولى التى يؤمن بهـــا الناس ويحسبونها من الدين · فكتب هؤلاء الكتاب هى خميرة الثورة التى هيأت لها تربتها وزودتها بما يخصبها ·

وليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاســـم · حقيقتها فعالمية · وأنت أيها القارىء المصرى لو قرأت الدستور ى وضع لمصر منذ نحو أربع سنوات لوجدت عليه مسحة « حقوق الانسان » التى أعلنتها الثورة سنة ١٧٨٩ ووجدت فيه الفاظا وعبارات تنم على هذا الأصل · وكذلك الحال فى سائر دساتير أوربا فانها مشبعة بروح الثورة الفرنسية ·

وفى الثورة الفرنسية عقل وهوس ·

أما العقل فهو هذا :

١ ـ ذهب الرعاع سنة ١٧٨٩ الى سجن الباستيل فهدموه · وكان الناس يسجنون فى هذا السجن بلا محاكمة وقـد لا يعرفون أحيانا التهمة التى سجنوا من أجلها ، وبهـدم الباستيل وخنق وكيله انهدم ركن كبير من الاستبداد ·

٢ ـ اجتمعت الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ وأعلنت حقـوق الانسان فقضت بذلك على الحكم الافدانى (الاقطاعى) ، وأهم ما فى هذه الحقوق :

١ ـ ان جميع الناس يستوون أمام الشرائع ·

٢ ـ لا يمكن تبرير امتياز فرد على فرد الا لمصلحة المجموع ·

٣ ـ لكل فرد ان يشترك بنفسه أو بنائبه فى وضع الشرائع ·

٤ ـ يجب ان تحمل الاعباء الوطنية بنسبة قدرة الفـرد على حملها ٠

٥ ـ لا يسجن أحد الا بحكم محكمة طبقا للقوانين ٠

٦ ـ حرية اختيار الدين وحرية الخطابة والصحافة من حق كل وطنى ٠

أما الهوس فهو هذا :

الغاء التقويم المسيحى وابتداء تقويم جديد من السنة الأولى من الثورة والغاء الأعياد المسيحية وتقسيم الشهر الى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام والغاء عبادة الله واختراع عبادة جديدة « لربة الذهن » ٠

وكل هـذا الغلو والشطط يرجع الى ما لاقاه الفرنسيون قبيل الثورة من استبداد رجال الدين والحكومة ٠

ففى سنة ١٧٩٤ حملت راقصـة جميلة الى كنيسـة نوتردام وألبست لباسا تشبه فيه ربة الذهن الأغريقية ثم عبدها الباريسيون فى مكان أمامها بالكنيسة سموه « معبد الفلسفة » وكانت النية على ان يقام تمثال لربة الذهن من المرمر ولكن نوبة الهوس انتهت قبل أن يشرع فى صنع التمثال ٠

ومضى الباريسيون على هذا الهوس نحو ستة اشهر اعلن فى نهايتها أى فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ ان الله قد رد باحتفال رسمى الى مكانه فى كنيسة نوتردام ٠

ويجب أن نذكر من هوس الثورة أيضا ان ١٤٠٠ رأس أطاحتها المقصلة بلا ذنب أو بذنوب طفيفة ٠

ولكن بعد كل ذلك هدأت العاصفة وعرف الناس قيمة التسامح وصار لاحرار الذهن أن يعيشوا ويجاهروا بآرائهم أمام المسيحيين أو اليهود ٠

توماس بين

ولد توماس بين بانجلترا سنة ١٧٣٧ ومات بامريكا سنة ١٨٠٩ م ٠

ويعرف بين بكتابين أولهما « الفهم » وثانيهما « عصر العقل » وكلاهما يعمل للحرية الفكرية ٠ فالأول حملة عنيفة على مبدأ الملوكية ودعوة الى الاميركيين لكي ينفصلوا من انجلترا ويؤسسوا جمهورية لا شأن لمبدأ الملوكية الوراثي فيها ٠ وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير فى الثورة الاميركية ٠ أما الثانى فحملة عنيفة أيضا على الأديان ٠ وله كتاب ثالث أقل أهمية عنوانه « حقوق الانسان » وضعه فى الدفاع عن الثورة الفرنسية وعن المبادىء الجمهورية وقد حاكمته المحاكم الانجليزية لحملته على الملوكية ٠ وهذه بعض العبارات التى حوكم من أجلها :

« كل حكومة وراثية تكون بطبيعتها هذه ظالمة » ٠

وأيضا : « لن يكون الوقت بعيدا عندما تضحك انجلترا من نفسها لاستجلابها واحدا من هولندا أو هانوفر أو زل أو برونزويك (يقصد ملوك انجلترا الأجانب) تنقده فى العام مليون جنيه وهو لا يفهم شرائعها ولا لغتها ولا مصالحها وقد لا يجد من كفايته ما يستطيع ان يؤتمن به على أن يكون شرطيا فى احدى القرى » ٠

وقد حكم عليه باهدار دمه ولكنه كان فى ذلك الوقت فى فرنسا ٠

أما فى حملته على الأديان فكان موقفه فيها يشبه موقف فولتير فهو كان يؤمن بالله ولكنه لهذا الايمان نفسه كان يكبره عن أن يكون هو صاحب الأساطير التى تعزى اليه فى بعض الكتب • فهو يقول : « عندما نتأمل عظمة هذا الكائن وهو يتسلط على هذا الكون الهائل الذى لا يكشف منه فهم الانسان الا جزءا صغيرا نشعر بالخجل عندما نجد أن قصصا سخيفة تنسب اليه ويقال عنها انها كلمة الله »

ويمكن أن يقال انه كان يؤمن « بدين الانسانية » أى الدين الفلسفى الذى يؤمن به صاحبه مضطرا بدواعى نفســـه لا بأوامر سلطة خارجية • وكان يقول أن لهذا الدين عدوين هما الالحــــاد والتعصب •

وفى الوقت الذى قدر فيه الوطنيون الفرنسيون خدمته للثورة وانتخبوه عضوا فى الجمعية وهو لا يدرى كلمة من الفرنسية سقطت منزلته عند الاميركيين حتى انه عندما عاد اليهم أجتنبوه واتهموه بالالحــاد •

القرن التاسـع عشر

القرن التاسع عشر هو القرن الذى استقرت ورسخت فيه الحرية الفكرية ٠ فانه ولد فى حجر الثورة الفرنسية التى شرعت تنكر كل التقاليد الدينية وتخترع الآلهة اختراعا ٠ فلما بلغ منتصف عمره أعلن داروين للناس ان الانسان لم يكن عاليا فسقط بل كان ساقطا فتطور وارتفع ٠

واتسم القرن التاسع عشر بثلاث نزعات تأيدت بها الحرية الفكرية :

١ ــ تمرد العمال فى جميع الأقطار الأوربية وتفشى بينهم النظر الثورى فى أحوال معيشتهم وتعدى هذا النظر أحوال المعيشة الى أحوال الضمير فنزعوا الى الحرية فى الدين ٠ ولا تزال الأوساط الاشتراكية للآن أبعد الأوساط غلوا فى الحرية الدينية ٠ والعبرة بالنزعة على الدوام فاذا ما نزع المرء الى الحرية فى النظر الاقتصادى أو الاجتماعى فانه لا بد نازع أيضا الى الحرية فى النظر الدينى ٠

٢ ــ اقبل العلماء على درس العلوم بشراهة وادمان وكان للبيولوجية أى العلم الخاص بالاحياء وللجيولوجية أى العلم الخاص بتكون قشرة الأرض والأحافير أثر خاص فى ترويج الحرية الفكرية٠

٣ ــ تحول درس كل الكتب المقدسة من الايمان والتسليم الى النقد والتمحيص بمقابلة التواريخ والتنقيب عن الآثار ٠

وفى ما يلى سنلقى نظرة سريعة على حوادث القرن التاسع عشر التى تمس الحرية الفكرية أو تتعلق بها بادنى علاقة ٠

ففى أوائل القرن نجد ان لابلاس الذى مات سنة ١٨٢٧ يعرض على نابليون نظرية يقول انه يمكن أن يستغنى بها عن فرض وجود اله خالق ٠ ولكن نابليون وان كان قد تشبع بروح الثورة الفرنسية فانه عندما رسخت أصول الامبراطورية أصبح ينظر للدين نظر أصحاب الدول والسلطان ولذلك رد لابلاس أقبح رد ٠ ولكن اقتراح لابلاس بدل على الروح التى سرت بين رجال الذهن فى فرنسا والتى بعدت بعدا عظيما عما كان سائدا فيها أيام فولتير ٠

وفى سنة ١٨٣٦ ألف ليال كتاب « قدم الانسان » أوضح فيه ان الانسان قديم يرجع ناريخه الى مئات الألوف من السنين كما تثبت ذلك الجيولوجية ٠ وقد كان أبعد الناس تقديرا لتاريخ الانسان على الأرض حسب ما تقوله التوراة لا يبعد أكثر من ٦٠٠٠ سنة ٠

وفى سنة ١٨٥٩ ثم فى سنة ١٨٧١ وضع داروين كتابيه عن نظرية التطور الأول فى أصل الأنواع والثانى فى أصل الانسان ٠ ولم يكن أحد يشك فى أن نظر داروين يختلف من النظر الدينى اختلافا فى الأصول والمبادىء حتى قال الأسقف ولبر فورس : « ان مبدأ الانتخاب الطبيعى يخالف كلمة الله » ٠

وفيلسوف التطور هو بلا شك هربرت سبنسر ٠ فان داروين قصر نظره على تطور الأحياء الذى يؤدى اختلاف الأفراد فيها الى ظهور السلالات ٠ ثم يؤدى اختلاف السلالات فيها الى ظهور الأنواع ٠ ولكن سبنسر أخذ النظرية وعممها على العمران والعادات والاخلاق وصبغ عالم المفكرين فى أوربا كلها بهذه الصبغة ٠ ومن الحق أن نقول الآن ان تعميم نظرية التطور انما يرجع الى علماء الانجليز وخاصة

الى داروين وسبنسر · وما هو ان عمت النظرية حتى كان علماء آخرون يطبقونها على الديانات نفسها ويرصدون حياتهم للبحث عن أصل السحر والعقائد الدينية القديمة مثل التثليث عند المصريين القدماء وغيرهم ومثل نظرية الفداء وتجسم لحم الآلهة فى الغلات الزراعية ونحو ذلك · وكتاب فريزر فى هذا الموضوع المسمى « الغصن الذهبى » من أفضل وأعمق نتائج هذا الدرس ·

وكان لتقدم العلوم البيولوجية أثر كبير فى زعزعة العقائد الموروثة لأنه ظهر منها أن جسم الانسان بعيد عن الكمال بادى النقص والخلل بما ورثه من أعضاء كانت تنفعه وهو بعد فى طور الحيوان وأصبحت الآن تؤذيه مثل الزائدة الدودية والقولون وغيرهما حتى قال هلمهولتز العالم الألمانى الذى مات سنة ١٨٩٤ عن عين الانسان : « لو ان أحد صناع النظارات أرسلها الى باعتبارها آلة لرددتها اليه ووبخته على عدم عنايته بعمله وطلبت منه رد نقودى »·

والقرن التاسع عشر حافل باسماء العلماء والفلاسفة الذين حاولوا تفسير الكون بدون الرجوع الى العقائد مثل شوبنهور وكونت وسبنسر · ونظمت فى أواخر القرن « جمعية الدهريين » فى انجلترا وشرعت تطبع الكتب العلمية والتاريخية ويقال انها قد باعت من مؤلفاتها نحو ثلاثة ملايين نسخة كلها فى مقاومة الأديان ·

وقلما نجد فى القرن التاسع عشر حادثة اضطهاد لحرية الفكر تستلفت النظر · فان الحكومات أخذت أمام حملة العلماء تنكف وتزدجر وكانت الاضطهادات السابقة والحروب الدينية لا تزال ماثلة بنتائجها المرعبة وعظاتها البالغة · ولكنا مع ذلك نسمع عن حادثة لو انها ذكرت قبل هذا القرن لعدت طفيفة ولكنها كانت خطيرة فى وقتها للتقدم الذى أحرزته الحرية الفكرية · ففى سنة ١٨٨٨ انتخب رجل دهرى يدعى برادلف عضوا فى مجلس العموم البريطانى وكانت العادة ان يقسم بالله يمين الولاء · ولكن برادلف لم يكن يؤمن بالله

ورفض ان يقسم هذه اليمين • فحبسه البرلمان ثم ألغى انتخابه • فعاد الى دائرته فانتخبته ثانيا فخضع البرلمان عندئذ واذن للدهريين في أن يقسموا اليمين التى يشاءونها •

وكانت العادة ان ملوك انجلترا لا يتوجون الا اذا سبوا البابا والكاثوليك فلما ارتقى ادوارد السابع محى هذا السباب من حفلة التتويج • وكان الكوثوليك يحرمون من مناصب الدولة فى انجلترا فالغى أيضا هذا التحريم • وكان الزواج يعقد فى الكنائس على أيدى الكهنة ولكن الأمم الأوربية قررت اعتباره عقدا مدنيا • وما جاء القرن العشرون حتى أخذت أمم كثيرة تفصل الكنيسة عن الحكومة • وبعضها مثل فرنسا عمد الى الاضطهاد فاستصفى أملاك الكنيسة ومنع التعليم الدينى من المدارس •

وهذه النزعة لا تزال سائدة • فمنذ سنة أو أكثر فصل مصطفى كمال الدين عن الدولة • ويمكن أن نقول ان العالم كله صائر الى هذه النتيجة والى اعتبار الدين شيئا خاصا بضمير الفرد لا يصح لحكومة أن تتدخل فيه •

تطور الحرية الفكرية فى مصر

النهضة الفكرية الحاضرة فى مصر ترجع الى عهد اسماعيل ولا يكاد يكون لها علاقة بنهضة محمد على ٠ اما لأن نهضة محمد على كانت ناقصة فى ذاتها كسقط الاجهاض لم تستقر فيها عوامل النمو قائمة على أفراد من الشركس والأتراك واما لأن عباس وسعيد قد قطعا الصلة بين نهضة محمد على وبين نهضة اسماعيل ٠ وسواء أصح هذا أم ذاك فان الواقع اننا نرى أسس النهضة الحاضرة تقام فى عهد اسماعيل ٠ ففى عهده ظهرت الصحف ٠ وكان الشيخ محمد عبده والأفغانى يتكلمان عن اصلاح الأزهر والحكومة ٠

وكلا الرجلين جدير بالذكر فى كتابنا هذا ٠ فقد حاول كل منهما أن يوجد اتصالا بين الشريعة والحكمة ٠ ويبدو من ذكريات رينان المطبوعة أن الأفغانى كان ملحدا ولكن الذين عاشروه فى مصر يعتقدون غير ذلك ٠ وقد كتب هو نفسه عن نظرية داروين ما يثبت نظره الدينى المحض ٠ أما الشيخ محمد عبده فمعروف فى مصر بجهاده للحرية وقد حاول اصلاح التعليم الدينى وبلغ منه شأوا عظيما وان لم يحقق جميع أغراضه ٠ وكان مما يهتم له أن يمسح على المعانى القرآنية روح العصر الحديث فقد فسر مثلا الطير الأبابيل المذكورة فى سورة الفيل بأنها ميكروبات نزلت بالناس فأحدثت المرض الذى فتك بهم وان السموات السبع هى ضرب من الكواكب ونحو ذلك ولقى الشيخ محمد عبده عنتا عظيما من علماء الأزهر لاجتهاده ومخالفته المأثور ٠

ويعد قاسم أمين فى طليعة العاملين للحرية فى مصر · فقد تربى بأوربا واشتغل بالقضاء فى مصر ثم قابل أحوال العائلة عندنا بما هى عليه فى أوربا وعزا ضعف الأخلاق والجهل الفاشى بين الناس وسوء التربية المنزلية الى حجاب المرأة · فدعا الى السفور وأنكر ان الاسلام يحتم حجاب المرأة · وقد أحدثت دعوته ضجة كبرى بين المصريين ولكن الطبقة الراقية تعرف الآن حكمة هذه الدعوة وتشعر ان كل يوم يمر على المرأة المصرية وهى محجبة هو يوم لا يحسب من حياتها وهو خسارة على الأمة بأجمعها · ومن الغريب اننا سبقنا الأتراك الى القول بحرية المرأة وسبقونا هم الى العمل بها فتقدموا وتخلفنا ·

ومنذ عشرين سنة تقريبا ترجم فرح أنطون كتاب رينان عن المسيح واشتبك مع الشيخ محمد عبده فى جدال بشـــأن الحرية الفكرية فى الاسلام والنصرانية · وقد انتفع قراء العربية بكلا هذين العملين من حيث استضر بهما فرح · فان رينان ترجم بحياة المسيح كأنه انسان لا يمتاز من سائر الناس الا بخلقه العظيم وذكائه الحاد ونفسه الوديعة · فكانت هذه الترجمة كشفا جديدا للقراء وتجرئه على حرية النقد للأنبياء والأديان · أما الجدال بشأن الحرية الفكرية فقد سار فيه فرح أنطون شوطا بعيدا فى كتابه «ابن رشد وفلسفته» وأظهر القراء على الاضطهادات الدينية القديمة سواء من النصرانية أم من الاسلام ·

وفى السنين الثلاثين أو الأربعين الماضية كان المقتطف يلقى فى أذهان القراء نظرية التطور ويبدى ويعيد فيها شهرا بعد شهر حتى أشربت عقول طائفة كبيرة من قرائه بهذه النظرية فتجرأ الناس بذلك على نقد الأساطير ·

ولما احتلت بريطانيا مصر وجعلت اللورد · كرومر عميدهـــا فيها استبحرت الحرية الفكرية فى البـــلاد حتى كانت مصر محط

المضطهدين من تركيا وموئل أحرارهم . وكان اللورد كرومر رجلا مثقفا بالثقافة الاغريقية يشق على مثله أن يقيد الأفكار الحرة . ولكن جاءت بعده طائفة من السياسيين والجنود وكانوا بعيدين عن الثقافة فضيق فى عهدهم على الصحف المصرية حتى كانت المجلة العلمية لا يؤذن باصدارها الا بعد تحريات واستقصاءات قد ينتهى عزم صاحبها وهنا وسأما قبل أن تنتهى الاجراءات الخاصة بالاذن له باصدارها . ولكن حرية الصحف لا تزال مقيدة للآن حتى فى عهد الدستور بضروب مختلفة من القيود منها وجوب استصدار رخصة لانشاء جريدة بعد ايداع مبلغ كبير من المال لخزانة الحكومة . ومنها احالة المتهم بمخالفة أو جنحة الى محكمة الجنايات اذا كانت الجريمة صحافية .

ومن القيود التى تغل الحرية الفكرية الآن منع تمثيل أى درامة على المسرح ما لم تقرها الحكومة فاذا وجدت أية اشارة تعتقد أنها تخالف ما تحب من آداب أو أديان أو أنظمة منعت الدرامة من التمثيل .

ومن حوادث الاضطهاد الدينى فى مصر نجد أقربها الينا حادثة الشيخ على عبد الرازق . فقد كان عالما من علماء الأزهر وقاضيا شرعيا فوضع كتابا عن الخلافة قال فيه انها ليست أصلا من أصول الاسلام وان الخليفة حاكم مدنى لا غير فعوقب على هذا الكتاب بتجريده من العالمية وفصله من المحاكم الشرعية . وحدث قبله ان الدكتور منصور فهمى وضع كتابا بالفرنسية عن حياة نبى الاسلام فمنع من التدريس بالجامعة أكثر من سبع سنوات . ومنذ أقل من عام وضع الدكتور طه حسين كتابا عن « الشعر الجاهلى » خالف فيه العقائد الشائعة فحاول العلماء أن يمثلوا معه الفصل الذى مثلوه مع الأستاذ على عبد الرازق .

وقد خدمت مصر الحرية الفكرية فى الشرق كله بمطبوعاتها وصحفها ونبغ فيها كتاب يدعون الى حرية البحث فى الدين والعلم والأدب وربما كان أبعدهم أثرا فى ذلك منذ بدء النهضة الى الآن شبلى شميل وفرح أنطون · فان الأول كان يجاهر بكفره ويسطو على رجال الدين متسلحا بنظرية التطور · وكان الثانى أديبا له مدخل لطيف الى قلوب الشباب كتب عن نيتشه وعن الثورة الفرنسية وعن المسيح باعتباره رجلا وعن الاضطهاد الدينى وكان فى تجديده للأدب العربى جريئا مقداما يشق الميادين الجديدة ولولا أنه دخل فى غمار السياسة ودار فى أعصارها لانتفع به الأدب العربى كثيرا ·

تبرير الحرية الفكرية

لا يبرر الحرية الفكرية سوى منفعتها ٠

ولا يبرر تدخل الحكومة ومنعها للناس من حرية التفكير سوى حقها في الدفاع عن النفس وحماية الجمهور من أذى مباشر ٠ أما اذا كان الأذى مقدرا في المستقبل البعيد فليس يصح للحكومة أن تتدخل فليس للحكومة مثلا أن تمنع خطيبا يتكلم عن فوائد الشيوعية وافضليتها للنظم الحاضرة ونحو ذلك ولا يمكنها أن تعتمد في منعه على ان لهذا الكلام أثرا في أذهان السامعين قد يدعوهم الى الهياج في يوم ما ولكن لها أن تتدخل اذا وقف هذا الخطيب ودعا الناس الى الثورة على الأغنياء وطردهم من دورهم والاستيلاء على أملاكهم ٠ لأنه في الحالة الأولى يشرح نظاما ويقابله بالنظام الراهن ويقول بأفضليته عليه ولكنه لا يحض الجمهور على التسلح ومفاجأة الناس بالثورة ٠ واذا كانوا هم قد اقتنعوا بصحة النظام الجديد الذى شرحه لهم وفساد نظامهم فلهم من برلمانهم باب لتحقيق هذا النظام ولا يمكن ان يحمل الخطيب تبعة هياجهم ٠ أما في الحالة الثانية فالدعوة الى الهياج صريحة والجمهور ينقاد الى الخطيب المهيج ويستأنس بالفاظه العالية كما يستأنس القاتل بسيفه ٠ فهو هنا مسئول عن الهياج والحكومة مطالبة بمنعه ٠

ويشق علينا أن نميز بين الحالات التي يؤدى فيها التفكير الحر الى الهياج المباشر الصحيح وبين تلك الحالات الأخرى التي لا يؤدى فيها الى ذلك ٠ ولنضرب عدة أمثلة ٠

فهناك مثلا خطيبان يترشحان للنيابة عن دائرة انتخابية فى البرلمان • احدهما له كثرة ساحقة فمهما خطب واسرف وطغى فى خطابته لا يجد من يناقضه • ولكن منافسه له قلة صغيرة جدا فاذا نطق بكلمة عدته كفرا وأثارت حوله ضجة وهياجا • ففى هـذه الحالة نجد انه وان كانت كلمات هذا الخطيب تحدث هياجا الا أننا نرى الحكومة مطالبة بحمايته هو ومنع الهائجين من هياجهم لأنه انما يتكلم عن قلة ولهذه القلة الحق فى شرح آرائها والذود عنها وان كان فى هذا اغضاب عظيم للكثرة •

وهناك مثلا درامة تمثل على المسرح يشرح أحـد أشخاصهـا مساوىء نظام الزواج الراهن أو حجاب المرأة أو نحو ذلك • وقد يستثير بمناظره هياجا بين النظارة • ولكن الحـكومة مطالبة مع ذلك بمنع الهائجين والزامهم السكوت وليست مطالبة بمنع التمثيل •

ففى كلتا الحالتين نجد هياجا مباشرا أساسه خطبة المترشح للنيابة وأقوال الممثلين • ولكن هذا الهياج غير قائم على أسـاس صحيح لأن الجمهور الهائج ناقص التربية • يجب تأديبه والزامه السـكوت حتى لا تستبد الكثرة بالقلة • ويمـكن أن يقال لذلك الجاهل الذى لا يستطيع ضبط نفسه اذا سمع خطبة منافية لآرائه أو رأى درامة تمثل لا توافق هوى نفسه : خفف عنك ورفه ولا تتعن بالذهـاب الى دار التمثيل أو الى حيث تسمع تلك الخطبـة التى تكرهها •

وليس ينكر ان للحرية الفكرية مضار ولكن ليس شىء فى العالم تجنى منه فائدة دون أن يكون له ضرر • وضررها هذا لا يمنع الناس من الانتفاع بها • فقد يقف خطيب مفتون مهوس يعتقد أن الوحى قد نزل عليه وان قيـام الساعة قد أزف فيحمل الناس على ترك أعمالهم بل على الانتحار تعجلا للساعة • وقد يطيعه بعض المفتونين فى ذلك وقد فعل المهدى السـودانى شيئا شبيها بهذا وجعل من

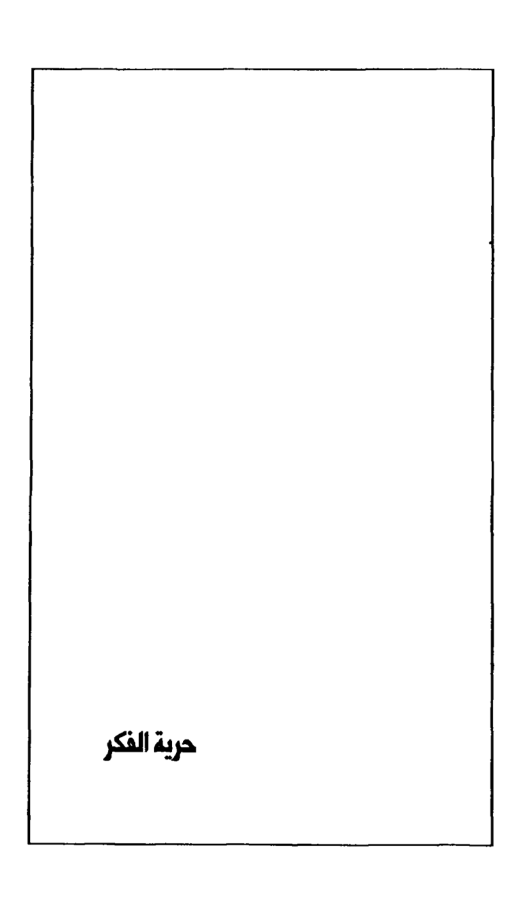
السودان جحيما أكثر من عشر سنوات · ولكن هذه حالات شاذة اذا تفاقمت ورأت الخاصة فى الأمة ان الأذى واضح لجأت عادة الى ما تلجأ اليه عند غارة أحد الأمراض الوافدة كالكوليرا بوقف الشرائع واعلان الأحكام العسكرية ·

وانما استقر المفكرون على ضرورة الحرية الفكرية وعلى ضرورة التسامح فى ما يحدث منها من الأضرار ما دامت هذه الأضرار غير فادحة لأنه ثبت ان هناك آراء منع الناس من القول بها كانت صحيحة وكان المانعون أنفسهم هم المخطئين · وهذا هو المعقول لأن السلطة التى تمنع الناس من البحث فى رأى ما مؤلفة من أشخاص معرضين للخطأ ليس أحد منهم معصوم منه · وثبت أيضا أن العلوم والفنون التى تملصت من قيود الحرية تقدمت وأثمرت كما نرى الآن فى الكيمياء والطبيعة والطب والميكانيكيات · فان تقدم الصناعة انما يعزى الى تقدم هذه العلوم كما ان رقى الحضارة نفسها يرجع اليها · وقد يكون هناك مجال للشكوى من سرعة تقدم هذه العلوم لا من تأخرها ولكن العلوم العمرانية والأخلاقية والشرعية والدينية كلها لا تزال متأخرة لأن الناس ليسوا أحرارا فى الكلام عنها ومناقشتها · فنحن اذا قابلنا علم الكيمياء اليوم بما كان عليه أيام سليمان الحكيم لوجدنا فرقا هائلا يكاد يكون كالفرق بين الطفل الذى يلعب بالنار وبين معارف مهندس يدير قاطرة · ولكن الفرق بيننا وبين سليمان الحكيم فى الآراء الدينية أو الأخلاقية أو حتى العمرانية لا يزال صغيرا جدا أو قد لا يكون هناك فرق أصلا ·

الفهــرس

الموضــــوع	الصفحة

الجـزء الأول


حرية الفكر



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

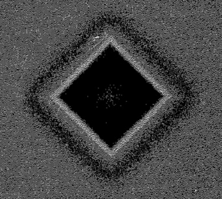
(التنوير)

حرية الفكر
سلامة موسى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦





مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

